أصوات مناهضة للإستدمار

فرنسيس جانسون

حربنا

توطئة بقلم
عبد العزيز بوتفليقة

ترجمة الدكتور ميشال سطّوف
مراجعة وإشراف : سمير سطّوف



منشورات ANEP

الكتاب من مرفوعات

مدونة برج بن عزوز



فرنسيس جانســون



توطئة بقلم

عبد العزيز بوتفليقة

ترجمـة الدكتور ميشال سطوف



منشورات ANEP

مجموعة التراث

في نفس المجموعة

- خطاب حول الإستدمار، إيميه سيزير
- مجد السيف، بول فينيه دوكتون

منشورات © ANEP
ISBN: 9947-21-310-2
Dépôt légal: 3182-2006

تصدير

من بين الأصوات الكبرى المناهضة للاستدمار التي طلبت من دار نشر في بلدي أن تعيد إصدار بعض أعمالها البارزة، فإنّ صوت فرنسيس جانسون واحد من تلك الأصوات التي أوثر. بل واحد من بين الأكثر نفعاً لتغذية الذاكرة الجزائرية - الفرنسية ، المتعايشة والرصينة.

في ذلك النصف الثاني من الخمسينات ، حيث ارتفع صوت فرنسيس جانسون شامخاً، لاذعاً، حاسماً، موحداً، كريماً، فإن نقد القيم - المضادة التي تفرزها الكولونيالية ، ما عاد فعلاً مبتكراً.

فكل على طريقته، من إيميه سيزير في «خطاب حول الاستدمار» وألبير ماميّ في «صورة مستعمر»، وفرانز فانون في «العام الخامس للثورة الجزائرية» قام جانسون بمحاكمة الاستدمار ، الذي لم يعتقد أي صوت بارز في الشمال، أن من الضرورة مجابهته وجهاً لوجه . فعلى الأكثر، هناك عدد من المثقفين الفرنسيين الذين تفاعلوا - بنغمة منخفضة - مع هذه الأصوات القادمة من الجنوب ، والمعتبرة شديدة الحرارة، أو حتى مبالغ بها، دون التشكيك بمبدأ إدانتهم للاستعمار.

في هذا النصف الثاني من الخمسينات المشبع بمناهضة فاترة للكولونيالية، كان يمكن لفرنسيس جانسون أن يكون مجرد واحد من أصوات الشمال المطبوعة بمعاداة رخوة وكلامية للاستعمار، صادرة من أعالي التعاطفات العالمية ، مغرّرة وغير فاعلة. وهو كفيلسوف بارع مولع بعلم الظواهر والوجودية ، له مداخله في مجلتين كبيرتين لذلك العصر (الروح Esprit - الأزمنة الحديثة)، وإدارته سلسلة في منشورات Edition du Seuil، فقد كان بكامل قدميه فوق الطريق العريضة والفضلى لتعزيز موقعه ككاتب معروف أصلاً ، وليصبح أحد سادة التفكير في الأنتليجنسيا الفرنسية . بيد أنّه رفض ولوج هذه الطريق ، مما صنع تميّزه وعظمته. واستبدل التصور اللاملموس للحركة بالفكر الفاعل ، وأخلاقية السلوك العملي ، في خدمة «القضايا المعقولة» ليحسن مواجهة القضايا «غير المبررة».

فلقد حدّد موقعه مباشرة، أثناء حرب الشعب الجزائري، المنتظم في جبهة التحرير الوطني، ضد الدولة الكولونيالية الفرنسية، وبشكل ملموس، في المعسكر الرديف لمناهضة الاستعمار، معسكر تأكيد وترجمة القيم الإيجابية لحرية الشعوب واستقلالها ، كما جملة قيم التضامن الفعلي بين الشعبين الجزائري والفرنسي ، للقضاء التام على الاستعمار.

إن فرنسيس جانسون ، بانخراطه في خدمة جبهة التحرير الوطني، بكيفية حرّة واعية وفعلية، إنما أسس لتميّزه الجذري عن غالبية الأنتليجنسيا والطبقة السياسية الفرنسية في تلك المرحلة.

ولقد عبّر فرنسيس جانسون عن هذا الاختلاف، بداية في : (الجزائر خارجة عن القانون) ، سنة 1955، أي بعد أقل من عام على اندلاع حرب التحرير الوطني، حين تولى مهمة متابعة المطالب الاستقلالية من مسؤولي جبهة التحرير. ولم تمض سوى أشهر قليلة قبل أن ينتقل إلى الفعل، حين أنهض بالتنسيق مع فدرالية جبهة التحرير في فرنسا، الخطوط الأولية لما سيصبح، الشبكة الرئيسة للدعم المتعدد الأشكال لنضال الشعب الجزائري من أجل استقلاله. هكذا يصبح الفيلسوف مناضلاً فرنسياً من أجل استقلال الجزائر، متخفّياً داخل بلده بالذات، منظّماً فروع الإيواء، وتحويل الأموال لحساب جبهة التحرير الوطني. كل هذا دون أن يتخلى يوماً عن تعلّقه الثابت – بل والحذر أحياناً– بالأمة الفرنسية.

هذه الشهادة غير المنشورة ، ستساعد على تعريف أفضل بالشخصية القوية لفرنسيس جانسون، الذي لم يستفد هو ومعظم أعضاء شبكته، بعد توقيع " اتفاقية إيفيان " وإعلان استقلال الجزائر، من العفو الخاص ، رغم سريانه على الآخرين من المعنيين بمأساة الجزائر.

إنّي أتذكّر، أنّه في كل مرّة كانت تقودني مستلزمات مهمتي ، كوزير للعلاقات الخارجية، لمقابلة الجنرال ديغول، كنت أطرح عليه ، بالطبع، هذه القضية .

وكما يعرف كل منا جيدا، فإن الجنرال كان يجيب على الأسئلة التي يشعر بجاهزيته لحسمها أو علاجها، و يتجاوز بصمته الطهروي

واللبق الأسئلة الأخرى. حتى ذاك اليوم من عام 1966 حين كان جالساً خلف مكتبه، يفرك يديه كعادته دون أن يفكر أبدا بتقليد بونس بيلات Ponce Pilate، إستمزجني ، بأدبه المعهود : « يمكنكم إذا ما رغبتم، تناول العشاء هذا المساء مع صديقكم جانسون».

هكذا ، تعجّلت أمري في نهاية النهار، وأنا سعيد بإعلان هذا الخبر الطيب ، لأحطّ عند فرنسيس جانسون، مع محمد بن يحيا، في شقّة ليست بعيدة عن دار الإذاعة، حيث وجدناه مع زوجته كريستيان فيليب، إبنة اندريه فيليب. لقد استحضرت، بكثير من الإخلاص، وأيضاً ببعض الإرتباك - أعترف بذلك - بعض عبارات الشكر لفرنسيس ورفاقه للدعم الذي وفّروه للشعب الجزائري في نضاله التحريري.

لا يمكنني أبداً ، أن أنسى جوابه الواضح والحاسم على صورة شخصيته: « ماذا تعرف عن تاريخ فرنسا مع الجزائر . دون شك تعرف بوجو وبيجار Bigard ،Bugeaud. لكنّ كلاًّ منهما - يا صديقي - ينتميان إلى أحد وجهيّ الميدالية ، بيد أنّ رفاقي وأنا ، ننتمي إلى الوجه الآخر من ذات الميدالية. نحن، نجسّد شرف فرنسا . لتحتفظ بخطابك لذاتك، وإلا فلسوف تشعرني كما لو أنني خنت وطني. ما فعلناه، كان دفاعاً عن قضية عادلة بالتأكيد، ولكنّه ، أكرر ذلك ، كان دفاعاً عن شرف فرنسا ، خاصةً».

إنه فرنسيس جانسون، كما كنت عرفته، حيث تعرّفت عليه من قبل، لكن مع سذاجة وضعف خبرة الشباب ، وحيث كنت أضع معركته في غير المكان الذي يضعها هو. كذلك حال رفاقه دون شك.

كتابه هذا : (حرينا) الذي نشر في منشورات (Minuit)، كان قد كتبه فرنسيس جانسون - على عجل - في جوان 1960 بعد موجة اعتقالات ألمت بشبكته ، يوضح فيه معنى نشاطه . حيث يردّ بقوة على عديد نقاده الفرنسيين. كما يهدف خاصة إلى تكثيف وتجذير وتوسيع شعبية أشكال النضال الجديدة التي يخوضها آلاف الفرنسيات والفرنسيين القادمين من مختلف الأوساط الاجتماعية ، والآفاق السياسية والايديولوجية المتنوعة ، إسهاماً عملياً في استقلال الجزائر.

من المؤكد ، أنّ هدف فرنسيس جانسون كان الإسراع في انتصار الشعب الجزائري. ولم يكن جانسون الوحيد الذي يؤمن بحتميته، حسبما تشهد بذلك مواقف ريمون آرون Raymond Aron منذ 1957 حول المأساة الجزائرية. كما كان هدفه أيضا – وخاصّة – أن يجعل من النصر الجزائري نصراً فرنسياً كذلك. نصر لا يكون بارداً مقتصراً فقط، على (انسحاب فرنسي) لاعتبارات إستراتيجية وحسابات اقتصادية، إنما استقلال حار، كنتيجة للنضالات المتلازمة. استقلال تناضحي ، يرسم معالمه الأولية، التآزر الرائع بين «شبكة جانسون» و«فدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا» وأربعمائة ألف مهاجر في المتروبول. هذا التآزر سمح بالفعل للجزائر المحاربة بالإستفادة من استقلال مالي لا شبيه له في تاريخ حركات التحرير الوطني.

ليجد هنا، كل من فرنسيس جانسون ورفاقه المناضلين، مرة أخرى تعبير العرفان الحميمي من الشعب الجزائري.

فيما عدا ذلك، لقد قال التاريخ كلمته.

إن تحقيق السلم عبر الاعتراف بحق الشعب الجزائري بالاستقلال، وبواسطة المفاوضات بين الدولة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، فإنّ هذا الاستقلال، في النهاية لم يكن، لا بارداً ولا حاراً، بل فاتراً.

لقد كان لموجة الصدمة التي أحدثتها - خلال سنوات عديدة - النضالات الشعبية الفرنسية، التي بادر بقسط منها فرنسيس جانسون، والتي تعاظمت خلال العامين الأخيرين من الحرب، تأثيراتها داخل سياسة الدولة الفرنسية تجاه الجزائر، وفي حركة الأشخاص بين طرفي المتوسط . ومن ثم ترك فتور الوضع مكانه إلى النداوة لأسباب عديدة.

على كل حال، لم تتوقف الرغبة العنيدة لفرنسيس جانسون في ترقية «الصداقة الفرنسية - الجزائرية» عند الحفاظ عليها مشتركة بدرجات مختلفة بين ملايين النساء والرجال على ضفتي المتوسط.

هذه الرغبة ما زالت - أكثر من أي وقت مضى - تحتفظ براهنيتها وقابلية تطبيقها القوية على نطاق واسع.

من أجل ذلك، من الواجب على شعبنا إعداد ذاكرة مشتركة متطلعة إلى المستقبل، متخلصة من نفايات الكولونيالية . هذه الذاكرة لا يمكن أن تكون في أي حال، في كنيف تذكاري، يتجاور فيه حمدان خوجا وكلوزيل Clauzel، أو العربي بن مهيدي وبيجار !

فعلى هذه الذاكرة المنشودة أن تكون ككل الذاكرات - انتقائية - ترسم معالم صداقة، نبنيها حول الوجوه البارزة : الجزائرية والفرنسية، المناهضة للاستدمار.

عبد العزيز بوتفليقة

كي يشرح مواقفه ونشاطه، وقام (فرنسيس جانسون) بندوة صحافية في باريس/ أفريل 1960، نشر ملخّص موضوعي وتفصيلي عنها في Paris - Presse ثم في l'express. إنه لأمر طيب، ملاحظة أن السلطات العامة لم تجد - بحق - ما تأخذه على ما نشر.

كما أن صحيفتي :Paris-Presse وL'Express، اللتين توزعان عادة بمئات آلاف النسخ، لم تتعرض لأية متابعة بهذا الخصوص.

ولقد أعادت مجله (الأزمنة الحديثة) فيما بعد /جوان 1960/ نشر رسالة هامة من فرنسيس إلى جان بول سارتر.

بدورنا، استلمنا عن طريق البريد، مخطوطة من فرنسيس جانسون، الذي اتبع أسلوبا، لا يمكن لأي شخص أن يحتجّ على نبله، حتى ولو رفض خلاصات المؤلف، الذي حدّد ووضّح بجلاء تصريحاته السابقة.

واعتباراً، لوجودنا في ظل نظام يفتخر باحترامه الحريات الأساسية للفرنسيين، يسعدنا هنا مساعدة واحد من مواطنينا على استخدام أول هذه الحريات. ألا وهي حرية التعبير.

Les Editions du Minuit

إهـــداء

إلى كل هؤلاء الذين يتقاسمون معنا نضالنا ، والذين ربما استحقوا ناطقاً أفضل باسمهم.

وفي المقدمة، إلى كل هؤلاء السجناء اليوم ، وقد حرمني الحظ غير العادل من أن أكون بينهم.

إلى أخي جورج أرنو، الذي " سدّد " من أجل حرية تعبيرنا .

وإلى جميع رفاقنا الجزائريين.

أهدي هذه الصفحات، علامة عرفان وودّ عميقين.

ف . جانسون

مدخل

لقد تم إعداد هذا الكتاب في ظروف خاصة بعض الشيء. ولا أخفي أن القارئ قد يحسّ بذلك.

فالاختفاء العرضي لجميع وثائق عملي قبل ثلاثة أشهر، وضرورة الإصدار قبل قدوم الصيف، واضطرار آخر شغلني حتى الأيام الأخيرة ... كلّ هذه الشروحات ، إن لم أقل الاعتذارات ، من واجبي تقديمها للقارئ، بخصوص الثغرات والشوائب المتنوعة التي سيصادفها في هذا العمل .وهنا ، لا أقصد من اهتمامي هذا بتنبيه القارئ ، مراعاة غروري ككاتب. حيث لا أفكّر إلاّ بمسؤولياتي على الصعيد السياسي، وبكل الهفوات التي ستراكمها - دون شك في الصفحات التالية - الكتابة المستعجلة (مضافة إلى عجزي - المحتمل جداً - عن إمكانية مراجعة المسودّة الطباعية) . إنّي أدرك حميتي الطبيعية، خاصة في هذه الميادين، والتي لم أستطع علاجها بهدوء ...

أودّ ايضا أن أطلب مسبقاً من جميع هؤلاء الذين سيقرؤون كتابي ، ألاّ يدعوا أنفسهم تصدم ببعض من نبرة جدالية، قد تظهر هنا أو هناك. وليطمئنوا وليتفضلوا بالتذكّر الدائم ، أن همّي الحقيقي الوحيد هو الحفاظ على، أو إنهاض قريب للحوار بيننا. لكن ربما تمنحوني تفهمكم - من وجهة النظر هذه بالضبط - لواجبي في التعبير أخيراً عن مواقفنا ، بصراحة كلية.

وبودي أن أؤكد أن هذه الصراحة لا يجوز أن تفسرّ بأي حال من الأحوال - رغم بعض المظاهر التي قد تبدو مغايرة – كإدانة ننزلها من فوق على الآراء المخالفة لما نراه.

إننا نؤمن بثبات ، بعدالة نشاطنا . ونتمنى أن نقنع أوسع عدد ممكن من مواطنينا. بيد أننا لا نشعر بأنّ ماهيتنا مختلفة، وإذا ما بدت ردود أفعالنا تجاههم عنيفة أحياناً، فإنها لن تكون أقل أخوية. حيث أننا معاً سنتحكّم بالوضع ، أو معاً سنغرق فيه.

الفصل الأول

أين يجب البدء لتسوية الأرضية

إذا نحن خونة. السيد بينازيه Bénaset بيّن ذلك في " l' Aurore"، والسيد جورج بيدول George Bidault مع السيد ديسمون Desmond في "Carrefour". كذلك السيد بول آدولين Paul Adeline في Réforme والسيد موريس دوفرجيه[1] Maurice Duverger في اللوموند.

سأقوم فيما بعد بتفحّص جميع الحجج التي استخدمها هؤلاء الوطنيون المنتقدون، ليثقلوننا بهكذا اتهام. لكني بداية، أودّ أن أقول إلى جميع هؤلاء الذين يشكّون - في كل الحالات - بأننا فقدنا بعض الشيء من حسّ الجماعة، أنّ عذرهم الوحيد، حتى يقلقوا إلى هذا الحدّ ، هو أنهم لا يعرفوننا جيداً . وهو ما ليس - بالضبط- حال هذا أو ذاك بينهم ...

---

(1) و آخرون أيضا بالتأكيد لكنني لا اهدف حاليا إلى استكمال اللائحة.

ماذا يظنون إذاً ؟ هل توقفنا لسوء الحظ عن أن نكون فرنسيين دون إرادة منّا، مثلما يصاب أحدنا بالرشح أو يصبح أجلح الرأس ؟ أو ربما أقصينا أنفسنا بأنفسنا، بطروحات متعمّدة الخلفية ؟ بل ربما يفكّر البعض، أنّ الحياة التي قضيناها حتى اليوم في بلدنا الأصلي تميّزت بالفشل. بيد أنّ الحقيقة في هذا الصدد تبيّن أنّ الأمور لم تكن سيئة أبداً بالنسبة لغالبيتنا.

عندما باشرنا نشاطنا هذا الذي نلام عليه اليوم، كان كلّ منا يحبّ مهنته. ولم نكن قد سقطنا في الفاقة الحقيرة. كما لم يكن باستطاعتنا أن نتجاهل – وهو ما لم يغب قطّ عن ناظرنا – أن فرنسا هي البلد الوحيد الذي لدينا الحظ أن نشعر بتمام الراحة فيه، نعيش ونعمل وفق استعدادات كل منّا.

فليكن واضحاً ، (وليكن هذا الأمر على الأقل، مفهوماً): أنه، ليس فقط لم نفكّر يوماً واحداً بالقطيعة مع فرنسا، بل أنّنا ندعي عالياً إمكانية الكينونة الفرنسية الحقّة. ولذا فإننا نعمل منذ الآن على إعادة تشكل مجتمع وطني، على قواعد حقيقية وليس على تصورات متأرجحة. ولسوف ينشط لذلك غداً ، ملايين البشر، حالما اهتز الخمول فيهم:

نعم، مع هذه الجماعة الوطنية بالذات، نريد أن نجسّد تضامننا الكلّي. والمسألة التي ستطرح إذاً ،هي معرفة إذا ما كان قضاتنا اليوم سيستطيعون أم لا ، الحفاظ على مكان لهم فيها.

بالذكاء المصقول، والثقافة العالية، وبعض من خفة الظل، ونوع من الانسجام في العلاقات الإنسانية – وهو ما يعرف بنعومة الحياة – وبكل ما جعل فرنسا بلداً محبباً ..بكل هذا ، نحن نرتبط كما يرتبط غيرنا.

بيد أنّ ما يثير الضجر حقاً، هو أن لا نستطيع الحديث عن هذا إلا بلغة الماضي، في هذه الفرنسا الراهنة حيث نعيش[1] مع أن هذا الماضي لم يكن قطّ سوى ماضي النخبة، أقليّة من أصحاب الامتيازاتّ. في كل الحالات ، لم يعد هذا واقع الحال اليوم لأي كان. فالضيق في كل مكان. وفي كل مكان نفذ الشكّ والخوف. حيث تميل كل مجموعة للانطواء على ذاتها، وللانغلاق في خصوصيتها، واعتماد موقف جامد دفاعي وسلبي – فقط – تجاه القضايا الجوهرية. لقد بدأ شعور العجز يسود مفسحاً المجال: إما إلى الاستغلال العقيم للسلطة، أو اللامبالاة المزيفة، أو إلى أسوأ أشكال الاستقالة.

بالتأكيد، لم تسقط هذه الأوبئة من السماء.

فلقد توصلت البرجوازية (القائدة)، خلال الأوضاع الاقتصادية المساعدة نسبياً، التي عرفتها فرنسا خلال الخمس عشرة سنة، إلى تسميم الطبقة العاملة، وشقّها وشلّها، عبر تمرير "رفضها "الخاص – لهذه الطبقة – في مواجهة القضايا الكبرى لعصرنا، على ضوء المعطيات الحقيقية لهذه القضايا. ولهذا الرفض اسمان :

---

(1) لقد كان يقول لي عمر أو صديق عام 1955 : «في زمننا، ربما كان هؤلاء يحبون الحياة أكثر، و كل ما هو ذو قيمة في العالم، هم الملزمون أكثر بدوس الورود.. كامر لا مفر منه. هكذا على الأقل، لن يكون أولادنا مضطرين لفعله».

مناهضة الشيوعية ، والعنصرية. فلو كان البعد الاجتماعي مطروحاً بكيفية أكثر حرارة، لما كانت هذه العدوى ممكنة. بيد أن الطبقة العاملة لم تكن تعاني كثيراً، وأتت عملية تعميم البيع - عن طريق التسليف - متلاءمة جداً لتواصل الفرحة الخادعة التي ولّدها «التحرير». ها هي دون أدنى شك، الطبخة الأفضل لإعداد «بروليتاريا للطبخ الهادئ». قليل من التسهيلات وكثير من انعدام الأمن.

من الممكن بالتأكيد ، نقاش الأسباب: بيد أن الواقع اليوم يظهر أن المجتمع الفرنسي لا يوجد إلا برسم (الاضطرارية). وأنّ الفاشيين من جهة والأمميين من جهة أخرى ، هم من يعيش - عن وعي - هذه الاضطرارية. وليس في الأمر أي تناقض، ففي كل من هذين الطرفين النقيضين يوجد رجال لا ينظرون إلى السياسة كمهنة أو مجال تأمل عميق ، إنما كشغف أو كضرورة.

والفرق بينهما هو الفرق بين معاني هذين الوصفين. هذا الفرق الذي لا يفرض ذاته دائماً بوضوح متساو: حيث أنه يمكن للضرورة أن تصنع مشغوفاً، تماماً كما يحدث أن يتخذ الشغف، بالنسبة للمعتاد عليه مظهراً لا ينفصم عن القدر . في الحقيقة لم يحدث أن وجدت يوماً ،الضرورة الصافية أو صفاء الشغف : أحدهما سيكون عاجزاً عن الظهور ،والآخر جدّ مجاني، يعجز عن تجسيد ذاته.

فربما يحتاج الفاشي إلى المجتمع بمقدار حاجة البروليتاري أو ابن المستعمرات له. بيد أن اختلاف الأوضاع في الأساس يجعلهم لا يحتاجون إلى سلوك الطريقة ذاتها، ولا يستمرون في تطبيقها وفق الآفاق ذاتها.

ففي نظر الفاشي، يقع المجتمع خلفه في الواقع، يحلم به ، يحنّ إليه. وعندما يسعى إلى تحقيقه، فإن مضمون مشووعه لن يكون سوى ماض خراقي بعض الشيء . وتوجهه هذا رغم زيغه ، لا بد من النظر إليه كتوجه «طبيعي» لأن الفاشي يعاني بحق ، من نقص التواصل مع أشباهه، لكن مع قناعته بأن هذا النقص، ليس سوى حادث عرضي في مسار التاريخ ، وقد حرم الناس من وضع كان بإمكانهم الاستفادة منه حتى ذلك الوقت.

ومن المؤكد أنه لا يفكّر بالعودة إلى هذه اللحظة من التاريخ بل إلى : تشييد «نظام جديد»، ليجد فيه النظام الكامل. تلك الجنّة المفقودة، إنما هي تنظيم اجتماعي يتصوره وينجزه الرجال الأفضل في نظره، ولا بد من فرضه على الجماهير لأنه صائب. هنا بالضبط ، أين يكمن خطأ الفاشي . فحتى ولو كان هذا التصور رائعاً بحد ذاته، فإن نظامه محكوم عليه في كل الحالات، لسبب جدّ بسيط: كونه ليس نتاج الجماهير ذاتها. فهؤلاء القادة (الأفضل) لم يعودوا ليعرفّون ذواتهم وفق مقاسات مجردة . ولم يعد يكفيهم إغراء الجماهير من خلال تجسيد القيم الخالدة: حيث أن القيم الوحيدة التي تعترف بها الجماهير من الآن فصاعداً هي القيم الملموسة التي تولّدها وتبدعها، انطلاقاً من شروطها الواقعية. والقادة الوحيدون الذين يمكن لهذه الجماهير أن تجد نفسها فيهم وإن بطريقة ضعيفة الاستقرار ولا شك ،هم هؤلاء الذين وضعتهم في موقع القيادة لبناء (صيغة العدل التي تحسّ بحاجتها لها) .

وعلى العكس من المسار الفاشي، الذي ينطلق إذاً من عالمية مجردة ويمارس على الواقع فعلاً خصوصياً، نلاحظ هنا ظهور ضرورة ملموسة، عميقة الجذور ، في ظرف وطني وفي شروط تاريخية محددة ، قادرة على فتح إمكانات جيدة (للعالمية) طالما أنها ترتبط – حول الجوهر – مع الضرورات المختلفة التي يمكن للجماهير عبر العالم أن تتحسسها.

لقد أراد هتلر فرض (العدالة الاجتماعية) على الألمانيين وبناء (أوروبا) رغم الأوروبيين. لم تكن هذه القومية الاشتراكية سوى فاشية، مثّلت محاكمة نورنمبرغ خلاصتها. غير أنّ الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية اكتفت بالتعبير عن المطلب العميق للشعب الجزائري: هذه الاشتراكية الوطنية سمحت للجزائر بإقامة علاقات صداقة و حرّة مع ثلثي العالم.

اضطهاد ونكوص من جهة، تحرر وتقدم من جهة أخرى . وفي نقطة انطلاق كل من هذين المسارين، هناك «الليبرالية» الغربية : نظام استغلال اقتصادي واضطهاد سياسي، تخالطه قيم مثالية أصبحت عاجزة عن أن تتجسد فيه، لكنه لا يتوقف عن الاستناد إليها على صعيد الشكلية القانونية والدستورية. هذا النظام يحدد مجتمعاً مأزوماً، و جماعة محطّمة، مطبوعة بالتناقض أساساً.

انطلاقاً من هنا، يمكنكم – إذا ما رغبتم ببناء الاتصال- محاولة تدمير هذه (الديمقراطية – الشكلية)، إما بتحقيق قسري لهذه (القيم) التي ترفعها، وإما بوضع (الشعوب) في مستوى أن تنتج – ذاتها- قيماً أكثر كثافة وثباتاً . هنا تدعون

إلى الضرورة المعاشة حقاً، وهناك تسلمون أنفسكم إلى الشغف الأكثر عبثية. هنا تعملون حقاً ليصبح اعتراف الإنسان بالإنسان ممكناً، وهناك تديرون له ظهركم في ذات اللحظة التي تتابعون بها حلمكم.

إذا ما ذكّرت بهذه الحقائق الواضحة، فمن أجل تحديد أدق للفراغ الذي نجادل في وسطه ، فعلى طرفي مجتمع شكلي، بغياب مجتمع حقيقي، هناك رجال يناضلون : بعضهم لتجسيد مثاليات لم يعد لها وجود سوى الوجود اللفظي في عيون مواطنينا، والبعض الآخر يسعى من أجل تنشيط ضرورة داخل الجماهير التي لم تتوقف عن تحسسها بشكل مبهم، لكن ردود أفعال أكثر سطحية - ومثارة بشكل افتعالي - ما زالت تدفع بوعيها نحو الموقع الخلفي.

لا هؤلاء ولا أولئك بخائن . بل على العكس ، هم الوحيدون الذين- من جهة كما من أخرى - يهتمون بإعادة تركيب الأمة، وتشكيل المجتمع: البعض من أعلى والآخرون من أسفل. البعض «ضد» (قومية ضيقة، ومعاد لكل قومية أجنبية)، والآخرون مع (أممية معاشة وفق القوميات المتنوعة).

يخطئ الفاشيون، وينخدعون بشكل كبير وخطير. ونحن نواجههم أيضاً دون تحفظ . قد يقال إن الأمر يتعلق بمعركة سهلة التصور، يسيرة التبرير: مبدئياً ، الجميع متفق على أنّ تسعة أعشار مواطنينا هم «مناهضون للفاشية» . لكن إذا ما نظرنا عن قرب، لن نتأخر عن اكتشاف أن مناهضة الفاشية تجرد مخيف . بالدرجة نفسها مثلاً، كمناهضة العنصرية ومواجهة الكولونيالية ...

كيف يمكن لأحدنا بالواقع، أن يكون (ضد كل شيء) بشكل فعّال، إذا وجدنا من جهة أخرى أنه يسعى (من أجل لا شيء) ؟ لقد صادفتُ خلال عام أو عامين كثيراً من هؤلاء الديمقراطيين اليقظين الذين يعلنون عن جاهزيتهم لمحاربة الفاشية فور (أن تصل إلى هنا) . فعند هذه النقطة الشكلية توقّف حسهم الديمقراطي بحيث أنهم ينتظرون أن يستكمل التخريب ، كيما يلاحظوا الوضع . وبحيث أن الحفاظ على بعض المظاهر يكفي لطمأنتهم.

كل السؤال يكمن في معرفة ماذا نريد، ومن أجل ماذا نحن نناضل. هنا أيضاً، من "الطبيعي " تماماً أن نجد عدداً هاماً من مواطنينا، الواقفين ما بين الطرفين، لا همّ لهم سوى همّ (سلبي بالكامل) يتعلق بالتشبث بواقع الأشياء وبالأمر القائم، طالما أن كل تغيير يبدو لهم قابلا لمفاقمة تهديد حالة غياب الأمن التي ترعبهم خفية، دون أن يتجرأوا على النظر – وجها لوجه – إلى الأسباب الحقيقية . هؤلاء أيضاً ليسوا بخونة : إنّهم ضحايا على الأكثر.

أليس من الواجب والأرجح البحث عن الخونة الحقيقيين، بين هؤلاء الذين يدّعون التقدمية والذين يعزّزون الجمود ؟ بين هؤلاء الذين – وهم زاعمون النضال من أجل ثورة – لم يشعروا يوماً بالحاجة إليها ،بل يمارسون يومياً لعبة خصوم هذه الثورة ؟ حيث أنهم يلعبون على الجبهتين: فهم يخدمون العالم القديم بذات الوقت الذي يثغون بتراتيلهم على شرف الجديد . فمن مقالات إلى مهرجانات، ومن عرائض إلى أعداد خاصة، نراهم لا يتوقفون عن لجم حركة يتباهون بترقيتها.

يتكلمون عن وضع حدّ لحرب يرونها حمقاء، لكنهم لا يقبلون بالمقابل، أن نساعد الشبان الفرنسيين على رفض ضياعهم فيها. يدينون الاستدمار، لكنهم يجرّمون كل شكل للتضامن العملي مع أبناء المستعمرات.

بالتأكيد، إنهم ليسوا أكثر استعداداً من لاغيارد Lagaillarde أو منا نحن على خيانة مجتمع غير موجود. لكنهم يخونون سوية : هذه الجماهير، التي يتظاهرون بإرادة تحريرها، وأيضاً، أولئك الذي اختاروهم - بناء على هذه المظاهر - كدليل لهم .[1]

---

(1) - يحصل من جهة أخرى، وبشكل أكثر فأكثر تواتراً ، أنّ المعنيين يعبّرون عن آرائهم بهذا الخصوص :

" نعم، إنّكم على صواب : شباب وطلبة يفكّرون حالياً بالرفض الجماعي للمساهمة في حرب الجزائر.

" وحول هذا، يتوجّب التوضيح !

«تتعجبون بحد هذه المشاهدة : «هو ما كنا نخشاه منذ خمس سنوات..؟». من الواضح في نظركم أن هؤلاء الشبان هم تائهون، يحظون بإدانتكم. وفي نظركم ما من خلاص خارج طاعة الدولة وكل ما تعمّد تحت اسم (الواجب). من أجلكم: « أيها الفتيان احتجوا، صوتوا UGS، PSA أو PSU، فكروا بالمستقبل الاشتراكي مع Sauvy، أدينو الحرب الاستعمارية والعنصرية لا بأس، لكن «أطيعوا».

«أصلا، ماذا تفعلون عمليا أنتم الذين تدينون؟ أبحاث ، إعلام ...!

«وأنتم - يا من تعبّرون عن إدانتكم - لم تفهموا ، أنكم باحتجاجكم على الإفراط الخارق دون فعل أي شيء بالمقابل لمواجهته فوراً ، إنما تلقون بشباب جيل الـ 18 ـ 25 عاماً في اليأس الذي يقود له الشعور بالعجز الذي لا يبرأ . »

ج . ر . نانسي (صحيفة الاكسبريس 28 افريل 1960 .

«ولن تعيدوا النظر في هذا الموضوع ، خاصةً وأنّ لكم حظوظ كبيرة بالوصول - أنتم وأصدقائكم - إلى السلطة مستقبلاً ، وسوف تحتاجون لساحة الشرف .." ص.ب. الإقامة الجامعية، أنتوني، 5/5/1960 ، صحيفة الاكسبريس .

«أنتم الآخرون، في الاكسبريس، تتكلمون مثل ديغول ومثل الحزب الشيوعي، أو مثل Rivarol. عبارات كبيرة لقرن مضى. هكذا تتركون لنا، نحن الفتية، تفصيل أن تتدبر أمورنا في هذا القرن، ولن نضحي من أجل ثرثرتكم الفارغة.

«من المؤكد، كما يقول ج.ج.و، س.س ، أن رفض الخدمة العسكرية، هو سلوك غير مسؤول، وعلى خطورة مجنونة بالنسبة «للمستقبل». حيث أن المستقبل هو أن نكون، ونستمر في أن نكون جنودا طيبيين جداً، كما كنتم منذ أجيال / المحاربين القدامى /.. أليس كذلك.

إني لا أقصد أحداً بعينه ، إضافة إلى أن هذا الكتيب يهدف أساساً ، إلى وصف نشاطنا وتحديد معناه (مما لا يترك أي مكان لغواية الجدل) ، فلقد شاهدت طوال الشهرين الأخيرين من التبدّلات في مواقف الرجال (بل ومواقف الأحزاب) المنقيضين حتى الآن من جمود الوضع، ما يجعلني أتخوّف كثيراً من أن أندم غداً على انتقاداتي اليوم ، لهذا أو ذاك من المتخلفين.

بهذا الخصوص ، ربما كان عليّ أن أحدد ما هو بدهي في نظرنا: إن هذا النضال الذي باشرنا به منذ ثلاث سنوات ، ليس له من هدف آخر سوى أن يصبح نضال شعبنا بالذات، ولسوف تكون لحظة نجاحنا هي اللحظة التي يتوقف الحديث عنا، لأننا نكون قد ذبنا وسط جماهير المناضلين . ربما سنحتفظ ببعض الفخر بأننا كنّا بين الأوائل. غير أن هذا الشعور سيكون ذاتياً بحتاً، وليس لدينا أصلاً أي ميل للاعتزاز يوماً بهذه الأفضلية تجاه أيّ كان .

بل أكثر من ذلك ، نعتقد أن صيغاً جديدة للنضال يمكن لها أن تنضمّ إلى صيغنا، بل أن تستبدلها. ولنا أن نلتحق بها دون عناء ، إذا ما أظهرت فعاليتها.

إليكم مثال جان ماري دوميناش Domenach الذي هاجمنا بشدة واضحة في مجلة Esprit بالتوازي مع L'Express : فلقد اتهمنا بالتنكر لانتمائنا إلى جماعة وطنية، انتماء يتضمن » واجب التضامن المتعدد الأشكال : من(قانوني وسياسي وأخلاقي) "، وبالتخلي «عن كل أمل بإنهاض فرنسا الخائرة المحطّمة في داء

شامل»، و « بدعم معسكر ضد الآخر»، وهكذا «إثقال مهمة السلم بتوفير غطاء لدعاة الحرب». إن هذه الانتقادات بذاتها لا تبدو لي مؤسسة. وإذا ما كان جوابي حاداً بعض الشيء، فلأنّ (السيد دوميناش) ارتضى بصيغة خلاصة – أن يعيدنا إلى «الوسائل الطبيعية للإصلاح» وإلى «السلوكات الشرعية» و «الواجبات المشتركة»[1]

(1) - لقد ردّ قراء الاكسبريس ، من جهة اخرى ، بشكل حاد ،

" .. تقولون أنّه لا بد من قاعدة ، وهذه القاعدة لا يجوز ان تفعل ضد الضوابط . فليكن . ما هي هذه القاعدة ، وما هي هذه " الاسباب العامة والشروط الشرعية والواجبات المشتركة " ، التي نسلكها دون جدوى ؟

" حتى متى ، بنظركم، يمكن للفرنسيين ، كحالنا، السلخطين على استمرار حرب يدفعون ثمنها، ويشجبها الضمير العالمي، ان يتسامحوا مع الجرائم البشعة التي ترتكب باسمهم ، والتي لم تعد خافية على احد، دون ان يصبحوا شركاء في هذا النفاق (النازف) ؟

ج.ت. باريس ، صحيفة الاكسبريس ، 31 مارس 1960 .

" لست متفقاً مع مقالة السيد دوميناش حول مساعدة جبهة التحرير الوطني الجزائرية .. ليس واضحاً في نظر الشعوب الاخرى ، إلاّ تكون فرنسا رمز الظلم ، كما كانته المانيا . . . لا ادعي ان يكون ذلك صحيحاً، لكنّي لا اعتقد أنّه ليس هناك سوى مشاعر القلب لدعم مجموعة فرنسيس جانسون.

" ... ليس بعيداً تلك الوقت للذي سيشهد أولئك الفرنسيون ذوو الذهن الصافي ، وهم يطرحون على أنفسهم السؤال حول العمل السرّي. وربما سيجدون أنفسهم مضطرين للإختباء او للهجرة ، من يعلم ؟ ولتشكيل حكومة ثورية. وإذا ما ظهرت يوماً صوابية هذا الأفق، فإنّ الخارجين عن القانون اليوم ، سيعتبرون رواداً ، وليسوا مجرد أصدقاء عزيزين جداً ، تاهوا بعض الشيء . الأب دوشان ، صحيفة الاكسبريس ، 7 افريل 1960 .

" تتجرأون بالكلام عن " دواعي القلب " عند فرنسيس جانسون وأصدقائه، كي تواجهوهم " بدواعي الروح " . الا تعتقدون أنّهم فكّروا طويلاً قبل تعريض حياتهم ومستقبلهم وصداقاتهم (للخطر) ؟ إنكم تتهمونهم بسلوك " بدائل عن الشعب " ، إنّي اعتقد العكس . انهم ليسوا ، فقط ، لا يتصرفون بديلاً عنه ، بل انّهم يمثلونه ، طالما انّ هذا الشعب سمح باختراق معارضة لاستمرار الحرب ، بالوقت ذاته الذي لا يريد التحرك. ربما كانت معركتهم المريرة ، هي الاحتجاج الوحيد لشعب نسخر منه ونحتقره ونقيئه . فهم إذن ، بالوقت ذاته، شرفنا وعذرنا.. وضحايانا " .

س ، مرشّح احتياط ، صحيفة الاكسبريس ، 7 افريل 1960.

مع ذلك، هو ذا جان ماري دوميناش وقد هجر ملجأ التجرّد التافه، يباشر اليوم حملة احتجاج غير عنيفة، يأمل منها - مع شخصيات أخرى متنوعة - أن تتمكن قريباً من الانتشار عبر عموم فرنسا. بيد أنّي، ورغم ارتيابي العفوي بهذا الخصوص، ألاحظ أنّ الأمر يتعلق هنا بمحاولة ملموسة، وأتمنى بقوة أن تتوّج بالنجاح. وليسمح لي دوميناش علاوة على ذلك، بالتفكير أنه لو لم تأت «مبادراتنا الفردية» و«عملياتنا الخارجة عن القانون»، مثل الدعاية التي توفّرت فجأة لها، لتشوش على الهدوء القانوني الحرفي لتوقعاته، ربما كان مازال ينتظر...

واليوم كالأمس، فهو مازال مستمراً في تفكيره أنّ هناك ما هو أفضل من «الغرق في سريّة شق عصا الطاعة والتمرد» : لكن فقط، هذا اليوم، أصبح من الممكن لهذا التأكيد أن يأخذ معناه، بمجرد محاولة فتح فعلي لطريق النضال غير العنيف «الذي لم يجرب بعد».

أكرر إذاً، أنّ الأمر لا يقصد استهداف أي شخص بعينه. لكن، طالما أن عدداً من الناس يستمر في استغرابه من وصولنا إلى هذا الموقف ولجوئنا إلى هكذا وسائل للنضال، توجّب عليّ أن أذكّرهم ببضعة كلمات، كيف كان اليسار الفرنسي حتى الأشهر الأخيرة، طوال أكثر من خمس سنوات من حرب الجزائر (وبعد سبع سنوات من حرب الهند الصينية):

«... إن جموده وخموله أو - على الأرجح - الحذر البائس الذي لازم نضاله ضد الحرب، كل هذا يجعله يتحمل بالتأكيد، جانباً من المسؤولية في إطالة هذه

الحرب». هذا ما كتبه كلود بورديه Claude Bourdet في (فرانس أوبسرفاتور، 3 مارس 1960)، حيث طالب هذا اليسار أن ينظّم أخيراً «خططاً مختلفة، ونضالات لا تكون رخوة ، فارغة وعبثية»: «ربما آن الأوان للتقدير بأن الأماني والاقتراحات الورعة لا تكفي».

وفي الأسبوع اللاحق، يعود كلود بورديه ليقيم الموازاة بين موقف اليسار وبين موقف عموم الشعب الفرنسي (خوار القوى - الشعور بالعجز- استقالة واسعة من السياسة - الالتجاء إلى الآب). وليحدد أن «... هذا اليسار، من جانبه، كانت لديه رغبة قوية بعدم النضال ، كما كان الأمر أكثر راحة - ومن بعيد - بعدم إحباط الآمال الشعبية ! هكذا إذاً، فقد فضّل اليسار أيضاً، أن يعتقد على أن يرى».[1]

هذا هو بالضبط ما لم نتوقف عن قوله .. حيث أننا في الواقع حاولنا الذهاب أبعد من ذلك، تحليلا للوضع وإشارة إلى الأسباب. لقد كان هناك مثلاً (ظاهرة العنصرية): حيث أن اليسار الفرنسي يعتقد أن الجزائريين لن يكونوا في مستوى النضال (السليم) من أجل استقلالهم، ومواصلة ثورة حقيقية، ستطول حتى يستلم هذا اليسار السلطة في فرنسا. وبالتالي ما على الجزائريين سوى الانتظار.

وهناك أيضاً، (ظاهرة معاداة الشيوعية) حيث أن اليسار غير الشيوعي وصل

---

(1) أيضا هنا جان ماري دوميناش (L'express, 24 مارس 1960) : يتوجب على مسؤولي اليسار أن يتحجلوا أمرهم : فرخاوتهم وعجزهم الثرثار، وانقساماتهم، هي من خلق هذا الفراغ الذي بحث عن ملئه، بوسائل متطرفة، هؤلاء الذين تم إيقافهم اليوم».

إلى درجة تعريف نفسه ، فقط ، بـ (لا) للحزب الشيوعي، بدافع الافتراق و التميّز عنه ووضع المسافات. وبالتلازم مع ذلك، فإنّ الحزب الشيوعي أضحى مشلولاً ، أمام سعيه الجهيد كي لا ينقطع عن اليسار غير الشيوعي، بما في ذلك الفرع الفرنسي للأممية العمالية. هكذا، فإن هؤلاء وأولئك معا مخدّرون بالجوانب التكتيكية، يتدبرون أمورهم كي تبقى المسألة الجزائرية موضع تعابير مجردة، بحيث لا ينظرون إلى الواقع الجزائري سوى من باب بعض المواضيع الشبه خرافية التي تمّ علكها لمئات المرات مثل (التطرف الديني لدى العرب - التوجه البرجوازي والامريكي لدى قادة الجبهة - التنافس بين جبهة التحرير الوطني وبين الحركة الوطنية الجزائرية - تصفية الحسابات بين الجزائريين - الإرهاب داخل المتروبول ..الخ) ، والتي كانت تمثل طيلة خمس سنوات وافر الحجج والاعتذارات للتمنع، وكثير الأسباب السيئة لتبرير عدم الانخراط ، وللإرجاء المتواصل لذاك اليوم الذي لا بد أن يواجهوا فيه مسؤولياتهم كي يطابقوا أخيرا أفعالهم مع مبادئهم.

بيد أن جوابهم الثابت ، كلما أثرنا هذه الامور ، أنّ الرأي العام ليس ناضجا بعد، وأنه في حقيقته عنصري ومتأثر- بعمق - بأساطير الكولونيالية، وبالتالي من الافضل ألاّ يقال له أكثر مما يستطيع سماعه.

هنا أيضاً ، أترك الكلام لكلود بودريه : « لنتوقّف عن الاعتراض على جمود الشعب ، ورفضه المسير. فدائما نجد أنّ الأقليات هي من (يشتغل) بالسياسة.

ولمعرفة إذا ما كان الشعب سيستجيب، لا بد قبل كل شيء من إيضاح الطريق أمامه. إننا نسدد اليوم ثمن افتقارنا الخاص للشجاعة عام 1955، حينها كان جنود الاحتياط والاستدعاء - أي الشعب - هم الذين يقدمون المثال برفض الذهاب (للحرب). وكنا نحن - القادة - من يحلل ويماطل.»

لقد كان عنوان المقال الذي اخترت منه هذا المقطع: « لننتهي من الحلم». وقد نشر في فرانس - أوسبرفاتور في 10 مارس 1960: وهو بالضبط ما كنت أكتبه في الأسبوعية ذاتها، بمناسبة جدل مع روبير بارا Robert Barrat ، قبل ثلاث سنوات . ما هي المناسبة التي شرع فيا كلود بودريه بتسجيل ذلك ؟ كان ذلك حين أصبح اليسار الفرنسي معنياً بتحديد موقفه من هذا النشاط السري «المؤسف» وبأخذه بعين الاعتبار ، تحت ضغط الصحافة الكبرى.

وإذا كان حقاً لا بد من تبرير، لنعترف بأننا نميل إلى اعتباره كافياً .

في الواقع، لست أكتب هنا من أجل تبرير الذات. بل سأقول الآن إذاً، ما الذي كان عليه نشاطنا، وماذا كان يعني في نظرنا في البداية . وما هي المشاكل التي واجهتنا طيلة السنوات الثلاث، وأخيراً ما هي آفاقنا الحالية ؟

مع ذلك، لا بد من توضيح : حينما بدأت نشاطي هذا، لم أكن الأول أو الوحيد لمساعدة المناضلين الجزائريين . فلقد كان هناك آخرون قبلي، وآخرون يمارسونه في جهة أخرى. إني لا أريد - على الخصوص - أن تؤدّي كلماتي الخاصة والضجة التي أثيرت حول اسمي ، إلى تناسي أنه لم يكن لي يوماً أي احتكار لهكذا نشاط، من

جهة، ومن أخرى أن هذا النشاط اليوم – في عموم فرنسا وخارجها – يعود إلى آلاف وآلاف الأشخاص الذين ليسوا ، في معظمهم ، على أي احتكاك مع أعضاء الشبكات التي أنوّه لها هنا.

بالتوازي ، يهمّني ألا يؤدي اللجوء إلى كلمة (أنا) إلى أي التباس . حتى فيما يعني الشبكات التي قدتها بالفعل: إنه الحظ الذي وضعني هنا، وانطلاقا من ذلك ، فإنّ الآخرين هم من قام بكل شيء. هؤلاء «الآخرون» الذين يزدادون عدداً ، و «قوّة الأشياء» التي تتعاظم ضغطاً .

إني أنتظر بفارغ الصبر، تلك اللحظة، حين يصبح ممكناً التعبير الصريح بالاسم، عن فضل مئات النساء والرجال الذين ناضلوا في الظل، والذي بدونهم ما كان لمجموعتنا الأولية الصغيرة أن تفعل شيئاً، علاوة على أنهم لم يحظوا بمتعة تصوّر المشروع بشموليته ، وعلى انقطاع البعض عنا، في لحظة ما، لأسباب أمنية، ما كان لنا صلاحية إطلاعهم عليها.

هل يجب أخيراً أن أوضح أن المواقف التي أعبر عنها هنا باسمي ، وبموافقة مساعديّ الرئيسيين – لا تلزم بالضرورة وحول جميع النقاط كل الأشخاص الذي ساهموا معنا.

إن هذا التنوع السياسي، في عملية الانخراط النضالي هذه ،والتي تستند أصلا بكاملها إلى إرادة الشروع بمسيرة التوحيد الضروري لقوى اليسار – داخل مجموعتنا بالذات – إنما يجد (هذا التنوع) رديفه في تنوع بعض الدوافع وراء انخراط هؤلاء وأولئك من الرفاق والرفيقات .

الفصل الثاني

الــدوافــع

إن بعض مفكري الصحافة اليومية أو الأسبوعية يتكلّفون بأن يروا فيّ جانسون: «منظّر» " لشبكة الدعم " . بيد أن الدعم العملي للجزائريين كان بداية بالنسبة لي ، الموقف الوحيد الممكن نظراً، إلى أن قادة اليسار بالضبط لم يكونوا أكثر من منظرين. همّهم التخلص من المسألة الجزائرية من زوايا النظريات التي يعلنون عنها، دون حتى أن يفكروا بالشروع بتطبيقها يوماً . حيث أن المبادئ لم تغب يوماً داخل هذا اليسار، لا على الصعيد الاشتراكي ولا على الصعيد المسيحي . ها هي الماركسية الأكثر حسماء و(المحبة) المطلقة حاضرتان هنا. لكن - يا للبؤس - في الأفكار فقط.

من المفهوم أنني أتحدث هنا عن اليسار الرسمي العام، يسار القادة، والزعماء، وخاصة يسار«الأجهزة»، فلقد سمحت لنا سريعاً ضرورات العمل اليومي من تبيّن أن الوضع في القاعدة والعمق، قلما يتطابق مع الوضع في (القمة).

وإذا ما وضعنا جانبا نسبة ضئيلة من الرافضين لهذا الواقع ، فإن تجربتنا طيلة السنوات الثلاث ، تسمح باستخلاص أن بطء التجنيد لا يعود مطلقاً إلى ندرة «المتطوعين»، بل إلى صعوبة الكشف عنهم والاتصال بهم، أخذين بعين الاعتبار شروط الأمن الأولية ، كما حالات الاستعجال التي كان علينا مواجهتنا باستمرار: هكذا فإن كثافة العمل ربما حرفت نظرنا لفترة طويلة عن الجهد المطلوب للاستكشاف الذي كان يمكن له أساسا – كأول نتيجة – امتصاص كثافة العمل هذه.

فلقد تعاظمت وتنوعت مهماتنا كثيراً جداً منذ الأشهر الأولى. ولن أفصّل فيها هنا، حيث تحدثت عنها في مكان آخر . بيد أنّ أهميتها لا تكمن فيها، ذاتها، بل في المشاكل المختلفة التي لن يتأخر طرحها علينا. خاصّة ، وأننا لا نستطيع تصور هذه المشاكل إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار انشغالاتنا الأولية.

لقد قلت أعلاه أن الأمر يتعلق بتطبيق وبنقل الطروحات الأساس التي يرفعها اليسار الفرنسي – شيوعياً كان أم غير شيوعي – إلى ساحة العمل ، إلا أن المشروع كما حددناه، وبصفة ما، ما زال مجرّداً بعض الشيء . ما اقصده هو أن الدوافع الحقيقية في ذات اللحظة، لا تظهر ولا يتم تحسّسها بشكل جدّ دقيق .

لقد كان هناك بالتأكيد ، الحماقة المذهلة لحرب خارج زمانها. حرب خاسرة سلفاً. ولا بد من أن يصل اليوم الذي يتوجّب شجبها رسمياً، كما كان يتوجب رسمياً بالأمس شجب الحرب السابقة ضد الشعب الفيتنامي. وكان هناك أيضا الإصرار

الإجرامي للقوى الرجعية التي كانت قد راكمت هناك باكراً– قبل أول نوفمبر 1954 – العوامل التي لا تحصى للانفجار النهائي : خاصة أثناء القمع الوحشي الهائل في مايو 1945 . إننا نعرف كل هذا ، ولقد تابعناه عن قرب. لقد عشت في الجزائر عديد المرات، ولست مستعداً – مهما كانت التفاقمات اللاحقة للوضع – لنسيان تلك السلوكيات المخزية لقوات الأمن خلال هذه المرحلة التي زعمت هدوءها، ما بين منتصف 1945 وأواخر 1954. إذ لا يجوز معاملة شعب بهذه الطريقة، ولا شيء يبررها قطّ . لقد كان مبرراً لنا – نحن الفرنسيين – أن ننخرط ، منذ ذلك التاريخ ، في النضال الحقيقي إلى جانب الجزائريين.

شخصيا، أعترف أني اكتفيت ، كمثقف، بكتابة المقالات، وتقديم المحاضرات ، وأخيراً بنشر كتاب بعد عام من اندلاع العصيان ... وبخصوص هذا الكتاب ، فلقد تحدثت مؤخراً ، كم أسيء استقباله من جانب اليسار؛ مع ذلك ، عليّ أن أوضح أنّ كثيراً من كتّاب الصحافة الشيوعية ، نصحوا مباشرة ، بقراءته ، وبكثير من التعابير الحارة ، رغم الانتقادات التي ضمنتّها في الكتاب ، للحزب الشيوعي الجزائري . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ردود أفعال اليسار غير الشيوعي لم تفاجئني قط.

لقد كنت أدرك ما ينتظرني . كما كنت أعرف أن الوقت ما زال «باكراً جدا» لقول الحقيقة عن القضية الجزائرية. لكن بالمقابل، فقد بدت لي بالضبط ضرورة التصريح بالحقيقة دون تردد، كي لا يوصف آخرون فيما بعد بالتطرف، حينما يقولون هذه الحقيقة ، أو حتى جزءاً منها.

لقد راهنا – زوجتي وأنا – وبكامل وعينا – على حظوظ فعالية هكذا موقف: معتقدين أنه لا بد من الإقدام – وبشحطة واحدة – على اجتياز هذا الطريق الذي ما كان يمكن اجتيازه عملياً ، إلا مرحلة إثر مرحلة، وواقعياً ، ببطء أكبر مما كنا قد تصورناه.

إذا كنت أذكّر هنا بهذا الموضوع ، فلأنّه ، ليس بدون علاقة مع الموقف الذي اعتمدناه – أصدقائي وأنا – فيما بعد ،على صعيد لم يعد هذه المرة ذهنياً. هنا أيضاً كنا ندرك تماماً أننا سوف لن نحظى بموازرة الأجهزة القائمة: أحزاباً ونقابات وصحافة اليسار. بالتأكيد لم يكن بمقدورنا أن نتنبأ – ولم نتبصر على أي حال – بأنّ سنوات عدة ما زالت تفصلنا عن اللحظة التي سيتحرك فيها أخيراً الضمير الفرنسي، بكيفية فعالة بعض الشيء. غير أن هذا الخطأ في تقدير المهل الزمنية لا يغير شيئاً في واقع أننا باشرنا نشاطنا الطليعي ، للتأشير للهدف ، ولكي يستطيع آخرون التقدم لاحقاً ، نحو هذا الهدف ، دون أن يتعرضوا للمخاطر ذاتها التي نتعرض لها.

لقد حدث أننا استطعنا مع ذلك ، استكمال هذا العمل خلال ثلاث سنوات ، دون أن نقلق البتة، لقد أصبح البعض منا اليوم داخل السجن. هؤلاء ، ضحّوا بالتأكيد من أجل تقدم اليسار، ويبدو لنا – من الآن – أن تضحياتهم لم تذهب سدى.

إذاً ، إن هذه الحرب الظالمة بالمطلق ، كانت علاوة على ذلك ، مزدوجة الحماقة: «غبية ولا مخرج لها» كما قالها مبكراً رجل من اليسار، اختفى بعدها . حيث ، إذا ما كان من المستحيل التخلص من الشعب الجزائري ، فإنه لا يوجد أي سبب يجعلنا نتمنى الإتيان عليه . لا شيء ممكن ضدهم ، وكل شيء ممكن معهم.

إنّه الحريق في القلب. لقد شهدنا طيلة سنوات ، النسف المنهجي للإمكانات الفرنسية في الجزائر، بل في عموم المغرب وكامل أفريقيا.

قد يقول أحدهم : إنّ فرنسا عرفت كيف تمنح الاستقلال إلى التونسيين والمغربيين، وأنّها فعلت الشيء ذاته ، مع شعوب أفريقيا السوداء ، منطقة إثر أخرى. لكن من منا لا يرى أن هذا الاستقلال ، ما زال وهمياً في الحالتين الأوليتين، طالما أن الجيش وكل قوى القمع الفرنسية تحتل الأراضي الجزائرية ، وتهدد دوماً بغزو المناطق المحيطة ؟ ومن لا يرى أن(نصف) الإجراء هذا ، يراكم في الواقع – من وجهة نظر العلاقات الفرنسية التونسية والفرنسية المغربية – سلبيات الموقفين الحدّيين : (استمرار الاستدمار أو المرور إلى استقلال حقيقي) ، دون توفير أي مكسب إيجابي ؟

حيث أن فقدان المنافع الاقتصادية على مستوى المستوطنين الكبار، لم يتم تعويضه بإقامة تعاون حر سيسمح ، إذا ما بوشر واستمر في مناخ من الصداقة بحلّ مختلف المشاكل العالقة، وبتجنب تشرد العديد من المستوطنين الصغار، والتأمين أخيراً – لبلادنا – الرابطة الصلبة مع مغرب عربي يتجه بملء إرادته نحو أوروبا – أي نحو فرنسا – أكثر بكثير من توجهه نحو الشرق، وبالأحرى أكثر منه نحو الولايات المتحدة الأمريكية.

لا بد من توضيح النقطة الأخيرة . وهي تخصّ تعلق الجزائر بفرنسا، تعلّق متميز بالبلبلة بقدر ما هو غير منتظر، حيث لا يمكن نفي عمقه. بالطبع يمكن

تقديم بعض الأسباب : كاستخدام لغتنا من جهة، وبعض الاندماج لكل هؤلاء الذين عاشوا في فرنسا، أكان ذلك في الحياة اليومية، أو التكوين الحاسم في المجال النقابي والميدان السياسي من جهة أخرى .. هكذا نرى مناضلين جزائريين يستشهدون بلا انقطاع حتى هذا اليوم، بصورة ما عن فرنسا (الثورة الفرنسية حقوق الإنسان، انتشار الحريات عبر العالم) أو أيضا بالطاقات العميقة للشعب الفرنسي، وبخاصيته التي برهن عنها في أحرج اللحظات من تاريخه ، حيث ينهض ويستعيد فجأة حيويته، في وقت نعتقد أنه مهزوم وخانع. لقد وفّر الواقع على الجزائريين، في ظل هذه العلاقة المزدوجة ، ويوماً بعد يوم ، أسوأ الخذلان. هذا الواقع الذي لم يتوصّل ، على كل حال ، إلى تيئيسهم حقاً، أو إلى التدمير التام لكل الجذور الصلبة ،في أساس موقفهم هذا[1].

لكن من المهم رؤية حدود هذه الظاهرة. ولنلقي بداية ،بكل توهّم حول هذه النقطة المحدّدة، حيث أن تعلقهم بفرنسا ، لن يثنيهم أبداً عن النضال حتى الموت، للحصول على استقلالهم. ولنتفهم أيضا أن التمييز التقليدي بين فرنسيي فرنسا وفرنسيي الجزائر (فرنكاوي والأقدام السوداء) الذي شكل لوقت طويل ، نوعاً من الوضوح بين المواقف المعنية، إنما بدأ شيئا فشيئا بالتلاشي، طالما أن

---

(1) قبيل اختطاف طائرة بن بلا (قبل ثلاث سنوات ونصف...) أوحى لي مسؤول رفيع في الجبهة، للمرة الأولى، أن أبدأ اتصالاتي مع عدد من التقنيين الفرنسيين، في عديد المجالات، لأطلب منهم إن كانوا يقبلون المساهمة في بناء الجزائر الجديدة بعد الإستقلال، بعيدا عن روح الإستعمار والأبوية. وبعد يومين أو ثلاثة من عملية الإختطاف أعلن المسؤول ذاته عدم جدوى متابعة الاتصالات. «هذه المرة، لم يعد بإمكاننا الثقة بفرنسا»... وأمام مفاجأتي الكبيرة برد فعله، سألته إذا كان هذا الحادث يبدو له فعلا أكثر خطورة من الأوجه الأخرى للحرب. فأجابني، أن الأمر هنا لا يتعلق بالعنف بل بالغدر العميق.
بالطبع، عاد هذا المسؤول وطلب مني بعد بضعة أيام، استئناف العمل المقترح.

(المتروبول) يبدو عاجزاً عن مراقبة تصرفات الحكومة الفرنسية في الجزائر. كما علينا أن نلاحظ أن نصف الجزائريين لا تزيد أعمارهم عن العشرين، وأن غالبية المناضلين الجزائريين هم من الشباب الذي لم يتلقى من فرنسا أي نوع من التكوين (واحد من عشرة منهم يكون قد استطاع دخول المدارس الفرنسية. كما أنّ هؤلاء الذين كتب لهم اجتياز المتوسط قبل الانخراط في جيش التحرير الوطني، أو في أجهزة مساندة.. هم أيضاً أقل بكثير).

والحال هذه، فإن الجيل الذي يقود حاليا الثورة الجزائرية ، سوف يترك قريباً مكانه لجيل جديد ، أكثر قرباً من المجاهدين والشباب ، وأكثر تحسّساً لرفضهم القائم لفرنسا : حيث أن فرنسا في نظرهم ليست سوى ذاك البلد الذي يحارب بلدهم، بعد أن استغله طويلا وقاسيا ، والذي يسعى إلى الاستمرار في استغلاله.

هل نحن إذاً ، أمام سباق حقيقي ضد الساعة . أعتقد أننا لم نعد نملك أي مهلة لإنقاذ الحظوظ الأخيرة ، لصداقة فرنسية – جزائرية. لقد تراكمت أسوأ الأخطاء ولحق من الأذى ممكنه.

وإذا لم يكن الأمر قد قضي إلى غير رجعة، فإنه معلق بخيط رفيع ، لا نستطيع أن نعرف متى يمكنه أن ينقطع ؟

إن جزائر معادية لفرنسا ، يعني مغرباً معادياً وأفريقيا سوداء معادية أيضاً . بل هي القطيعة الجذرية بين قارتنا القديمة، وعالم إفريقيا الجديد . وأخيراً ، اختناق أوروبا المنطوية على ذاتها والمحكوم عليها بالجمود ، أي السقوط . أمّا أحلام عظمتنا . . .

لا بد من رؤية ترابط الأمور في الواقع، فإذا كان قد منح سريعاً استقلال نسبي ، إلى كل من المغرب وتونس، فإن الوضع في الجزائر كان متفجراً ، أصلاً . كما من العاجل السعي لتحييد جناحي المغرب . وإذا لم تلجأ بعد ، الشعوب الزنجية إلى حمل السلاح، فإن فرنسا لن تتمكن من منح ذاتها بحبوحة توزيع 500 ألف رجل ، في الوقت الذي وضعتها الثورة الجزائرية لوحدها ، في موقف صعب. وسواء قبلنا أم لا، فإن الجزائر تقع في مركز كل هذا. كما أنّ تأثيرها لن يتوقف عن التعاظم من جميع الوجوه الأساسية لإنهاء الاستدمار في أفريقيا.

وإذا ما استطاع الجزائريون تحقيق شكل أصيل من الاشتراكية في بلدهم، فإن جميع الشعوب الأفريقية سيرون في ذلك التأكيد القاطع لهكذا طريق ، ولسوف يسعون لسلوكها لما فيه صالحهم. وعلى العكس من ذلك، إذا ما وجدت الجزائر ذاتها مضطرة للعب ورقة (الشرق) دون تحفظ، فإن أفريقيا بكاملها سوف تميل وتنفتح عبر هذا المدخل الجزائري ، نحو الاشتراكية المستوردة.

إنها بعض الحقائق البسيطة . بيد أن حكوماتنا المتعاقبة تستمر في تجاهلها، وتدفع (اللاشعور) أو يدفعها الازدراء واللامبالاة إلى الادعاء بضرورة استمرار هذه الحرب، لمواجهة المحاولات الشيوعية الانقلابية في أفريقيا . .

أرجو أن يعذرني القارئ على هذه الاعتبارات (السياسية العليا) . لكن لا بد لي من الإفصاح عن كل ما دفع إلى نشاطنا. فلم نفكر – من جانبنا – يوماً بعبثية النضال – في وضح النهار ووفق الأطر الشرعية – من أجل السلم في الجزائر ، عبر المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني[1]

---

(١) – ليسمح لي ببساطة أن أشد الانتباه، إلى أن معظم هؤلاء، الذين ينتقدوننا لأننا إخترنا طريقاً آخر للنضال، لم يخوضوا دائما الطريق الذي يطرحونه اليوم كطريق وحيد ممكن. فإذا ما كانت ذاكرتي دقيقة، نلاحظ أنهم قد أضاعوا ثلاث سنوات في المقارنة بين مزايا جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية، كما في إعداد مختلف الحلول التي قد تسمح بحماية الرأي العام الفرنسي من القلق المخيف الذي يثيره الحديث عن استقلال الجزائر.

لقد اعتقدنا – فقط – أن هذا النضال يستلزم وقتاً كي يصبح فعالاً . ومن المهمّ، بانتظار ذلك، أن تبقى بعض الأبواب مفتوحة. فبنظرنا ، توجد جدلية واضحة وضرورية بين العمل السياسي الشرعي والنشاط السري، بحيث يشكّل كل منهما ضرورة للآخر. وإذا كنا قد انتقدنا الصيغة الأولى، فليس بسبب خيارها للإطار الشرعي، إنما ، لهذا الوجه أو ذاك من تلك الصيغة ، والذي يبدو لنا غير معقول داخل هذا الإطار بالذات.

الفصل الثالث

إشكالات التضامن

لسنا قمصاناً سوداء ، وليس من ترف الفؤاد أن نصبح خارج القانون. لقد اتهمنا بالمغامرين، أو بتعبير أكثر تقنية، «بالارتجاليين» بيد أنّ المغامرة الوحيدة التي عشناها، يمكن لي أن أعرضها.

بداية، لقد عانينا من رجفة الخوف دون انقطاع ، ليس من أجل ذاتنا ونحن نخاطر بالسجن، بل لأننا أصبحنا مسؤولين عن سلامة نساء ورجال ، هم يخاطرون بالتعرّض للتعذيب والموت. كما كنا نعرف مدى التضحية التي يمثلها اشتراك مناضل جزائري بقيمة 1500 – 3000 فرنكا شهريا، ونشعر بعميق القلق ، لفكرة أنّ أدنى إهمال من طرفنا قد يضع بين أيدي رجال الأمن كل هذا الذي يلزم رجال عديدون أنفسهم باقتطاعه من «دخل الحد الأدنى» " للحياة الكريمة.

ومن ثم، وخاصة ، كان علينا يوماً بعد يوم ، مواجهة المشكلة السياسية التي يقتضيها خيارنا للتضامن العملي. وهي مشكلة متعددة الجوانب ، سأحاول تفصيلها هنا.

لا شك أنه يسهل فهم صعوبة أن نعيش تضامننا هذا ، عندما نكون كمشة من الرجال فقط ، نتضامن مع شعب بكامله. حيث نواجه أيضاً تحديين متعاكسين: من جهة، أن يكون تقبلنا من طرفه، إلى درجة قد نصبح معها موضع ابتلاع واختلاط وغمور وجزأرة . أو موضع رفض بحكم الحفاظ على مسافة ما ، من جهة أخرى. لقد لعبنا الخيار الصعب اي محاولة أن نكون تماماً / مع / . . والبقاء / ذاتنا/ تماماً أيضاً . وبإمكاني القول بعد التجربة العملية ، أننا نجحنا في ذلك. فلقد عملنا طيلة ثلاث سنوات (لصالح جبهة التحرير الوطني) وحصلنا منها على الوسائل المالية الضرورية لنشاطنا، لكن دون أن نكون «بإمرتها» أو في «حسابها». ولي أن أنتظر تكذيباً ما لهذه الحقيقة ؛ جزائرياً كان أم فرنسياً.

لقد كان علينا، بالوقت ذاته ، وبعلاقة جدلية مع الآفاق الخاصة لجبهة التحرير الوطني، الحفاظ على بعض التطلعات الفرنسية والاشتراكية، خلال مدة طويلة ، كان اليسار أثناءها يدعو لفرنسا وللاشتراكية بمواصفات التطرف الوطني والعنصري ، بحيث أن الجزائريين انتهوا بعدم القدرة على تقبلّ الحديث عن هذه أو تلك.

ولقد توجّب علينا أن نؤكد لهم ، أنّ هذا اليسار، ورغم كل المظاهر الراهنة لم يمت، وأنه في طريقه لوعي المشاكل الحقيقة، كما لديه من الطاقات الواقعية بما يؤهله للتأهب ودخول ساحة الفعل، بشكل جدي.

لقد صمدنا . بيد أني لا أود أن أقدم أية فكرة خاطئة عن جدارتنا؛ فلقد كانت متواضعة جداً حتى على هذا الصعيد. حيث أن المسؤولين الجزائريين الذين واجهناهم ، برهنوا باستمرار عن حسّ سياسي سمح لهم في كل مناسبة ،أن يروا أبعد من المظاهر المباشرة . حسّ ، كانت ستبقى حججنا ، بدونه ،عقيمة . «أنظر يا فرنسيس ، قال لي أحدهم ذات يوم، ربما كان هناك احتمال واحد من مائة، كي تعتبر قوى اليسار معركتنا كمعركتها، لكن إذا ما وجد هذا الحظ، فإنه ليس من حقنا إضاعته. سيصمد شعبنا عشر سنوات إذا لزم الأمر، بيد أنه من واجبنا عدم إهمال أي شيء من أجل اختصار عذاباته» . وكثيراً ما تمّ التعبير عن الفكرة ذاتها أمامي ، ولو بصيغ مختلفة .وهنا ، لا بد أن نلاحظ دون شك، إلى أية درجة تختلف عن موقف المجاملة المنسوب إلى جبهة التحرير الوطني ، من طرف غالبية المعلقين السياسيين في اليسار.

يبقى أنه ، لو لم نكن هنا، نحن وعدد آخر من الرجال الموزعين على كامل التراب الفرنسي، فإن مثل هذه الفكرة التي تبدو في البداية مجرد رهان، كانت ستواجه بعض الصعوبات لتجد نقطة ارتباط (و القليل من التبرير) في وسط عصيّ بعمومه. لذا بالضبط، كان علينا في الوقت ذاته العمل على الجانب الفرنسي لجعل هذا الوسط أقل تمنّعا . حيث أننا لم نكن قناصة بميولنا، كما لم نتمنى أبدا أن نلعب دور الطليعة أو «شهوداً » حتى نهاية الزمن . هنا، كانت تتربص بنا صعوبة أخرى تتعلق بالإعلان عن نشاط يفترض أن يبقى سرياً . إن خلق (حقائق من أجل ...) شكّل

أول حلّ للمشكلة ، ومن ثمّ وفرت اعتقالات فيفري الأخير دعاية مجانية لنشاطنا بإثارتها دوياً غير منتظر. حيث سمحت لي ندوة صحافية بعد مرور شهرين عليها ، من تعزيزها و من استخدامها هذه المرة بشكل إيجابي.

بعض الأصدقاء تساءل – على ما يبدو– عمّا إذا كنت قد اقترفت خطأ ? بل خطيئة – حينما حددت هذه النقطة أو تلك أثناء الندوة. ليطمئنوا ، فإنّ كل ما قلته، خاصة حول شبكة (التمويل)، كان معروفاً منذ زمن طويل لدى أجهزة الأمن. صحيفة Paris Presse ذاتها التي نشرت الندوة، كانت قد قدمت في مناسبتين خلال السنوات السابقة، تفاصيل أكثر شمولية . وإذا كنت قد شعرت على كل حال – بالحاجة – إلى تقديم بعض المعطيات ، فإنّ ذلك يعود، إلى أنّ الشرطة والسلطات العامة، كانت قد لاحظت على هذا الصعيد – بعض التكتم غير العادي . يمكن لنا أن نتفهمهم قليلاً. فلقد أرادوا الإعلان وبفرقعة كبيرة عن تفكيك «شبكة الدعم»، في حين أنهم لم يستطيعوا وضع اليد إلا على جزء من ثلاثين من المبلغ الإجمالي الذي جمعناه في ذلك الشهر، المماثل لجميع الأشهر الأخرى.

أصدقاء آخرون، أو هم ذاتهم، ربما انفعلوا لرؤيتي «استفزّ » الشرطة .لكن لو أرادوا ، ولو للحظة واحدة أن يضعوا أنفسهم مكاني، لاكتشفوا بالتأكيد ، أنني ما كنت سأخاطر هكذا، لو لم يكن لدي – من جهة أخرى – أسباب قوية لفعله.

عندما يكون أحد في الوضع الذي كنت فيه، لا يمكن أن تنهشه الرغبة الصبيانية للفت انتباه الخصم، وتهييج سويدائه . هكذا لم يكن الهدف بالتأكيد استفزاز

المحققين : بل إثارة الرأي العام وأحزاب اليسار. وكان علي أن أظهر لهم أن نشاطنا الذي يكاد يعرف ، لم ينته، بل بالعكس، فهو صامد وقابل للحياة تماماً، طالما أن الحملة الأمنية الواسعة، لم تتوصل إلى شله في المستويات الأساسية.

العناصر التي لا تفعل شيئاً ، تنشغل دائماً وكثيراً ، بهؤلاء الذي يجهدون لفعل شيء ما. إن قلقهم هذا لا يستهويني ، بشكل عام . مع ذلك فلقد نوهت إلى هاتين الحالتين لسبب خاص جداً:

فهم يبرزون بجلاء إحدى المشاكل التي أثرتها أعلاه، مسألة علاقتنا مع الجزائريين في ممارسة التضامن الفعلي. إذ حدث أن عقدت هذه الندوة الصحافية دون أن أتحاور معهم حول هذا المشروع: في الوقت الذي توفّرت لي شروط مناسبة جداً ، في لحظة ليس لدي أدنى اتصال، وقدّرت أنه يجب عدم تفويت هذه الفرصة التي قد تكون وحيدة . لقد سمعت أنني «استدعيت» للخارج كي أصبح موضع اتهام حول هذه النقطة . . . لو حصل ذلك ، لكان البرهان على الفشل الكامل لنشاطنا.

يسعدني أن أتمكن من القول أن هذا غير صحيح البتة . وأننا نحتفظ بالثقة برفاقنا الجزائريين، مع كل الاستقلالية الضرورية لمتابعة (عمل سياسي)، يفترض معناه ذاته ، أن نكون متضامنين مع شعبهم (كممثلين للشعب الفرنسي) .

ربما تسمح هذه الملاحظات بتوصيف أفضل للتناقض الغريب الذي ما انفك يضايق عملنا. فلكي لا يخلط الجزائريون بيننا وبين جميع المنظرين ومقدمي النصائح الذين لم يعودوا ينتظرون منهم أي شيء منذ زمن طويل، كان لا بد أن

يكون التزامنا إلى جانبهم كاملا، وأن نصبح من مناضلي جبهة التحرير الوطني. وبالمقابل لكي نتمكن من إيصال صوتنا إلى مواطنينا، دفاعا عن مبدأ التضامن ثم دعوتهم لتطبيقه، كان علينا أن نثبت أننا لا نتنكر بأي حال من الأحوال لصفتنا كفرنسيين، وأننا نحتفظ بكامل استقلاليتنا.

إن التمييز بين المستوى العملي والمستوى السياسي يوفر في بعض الحدود ، وسيلة للانفكاك من التناقض . حيث أن أسباباً تقنية واضحة تستدعي على الصعيد العلمي ، احترام نظام دقيق ومشترك بين العناصر الفرنسية والعناصر الجزائرية. في حين أنه على الصعيد السياسي، يتفهم كل جزائري تماماً أنه علينا تكييف نشاطنا مع الخصوصيات المتنوعة للظرف الوطني. لكن يجب أن نرى وجود خطر ضخم هنا، بحيث أننا إذا ما ميزنا بوضوح فاصل بين الصعيدين، سنحطّ في حرمان المساعدة العملية من كل معنى سياسي، وبالوقت ذاته في قطع نشاطنا في الوسط الفرنسي عن جذوره الملموسة. قد يزول التناقض لكن ستزول معه كل حظوظ فعاليتنا.

في الواقع، إن التناقض حقيقي. وبعيداً عن محاولة الانفلات منه ، علينا -على العكس -أن نتجاوزه وأن نحلّه تدريجياً. ولكي نتوصل لذلك فإن الطريقة الوحيدة أمامنا ، ألاّ نهمله أبداً، وألاّ نحاول قطعاً التخلص من أي من هذين المفهومين. وهو ما يمكن إعلانه بكيفيات متعددة؛ ولسوف أختار الأكثر . . . استفزازاً . فقط ، أتوسل هنا أيضاً، ألاّ ينظر له كنزوة خالصة من طرفي .

لنقل إذاً، أنه يتوجب علينا بالوقت نفسه أن «نخون» الفرنسيين باعتماد القضية المشتركة مع الجزائريين، و أن «نخون» الجزائريين ببقائنا محض فرنسيين.

إنّ هذه «الخيانة» المزدوجة ، إنما تجسد وفائنا للقضية الفرنسية وللقضية الإنسانية، اللتين عليهما بالضبط أن يشكّلا القضية الواحدة ذاتها. إني أتحدى أياً كان، أن يتوصل، بشكل مختلف ، وفي الظرف الخاص الذي يحيط بنا ، منذ نوفمبر 1954 ، للنضال من أجل العدالة، ومن أجل بلده بالوقت ذاته. وبكل افتراض ، فإننا جميعاً غارقون في (الخيانة) حتى الأذنين . البعض خائن دون علمه، وهم الضحايا المتأرجحون في خضم الاضطرابات. والمحمولون بتيار لم يدركوا بعد اتجاهه. أما داخل هؤلاء الذين يخونون بوعي، هناك البعض الذي يبحث عن الاستفادة من مكاسب التكيّف مع الوضع ، مع إدعاء التقدمية، وزعم استحقاق مكانة «السياسيين» الحقيقيين وآخر الحكماء والرؤوس المفكرة الوحيدة . بينما يجهد البعض الآخر- بشغف - لخلق الشروط التي تسمح لأي شخص بأن يخدم مثلاً أعلى ، دون أن يضطر لخيانة مثل أعلى آخر.

لقد سبق وقلت إنّ التناقض لم يتوقف عن مضايقة عملنا: وهو في حقيقته شبح تناقض، بالكاد أن تمسكوا به كحقيقة، أو أن تبحثوا عن تحديده، وهاهو يصبح بلا منطق، ومحض خيال ، لايدافع عنه . مع ذلك فهو هنا، في رسم كل من أعمالكم ، نافذاً في كل شيء، مسمماً كل شيء بحضوره المخاتل. حيث تسير واقعيته - في الواقع - بالتوازي مع لا واقعيته. فهو واقعي ، طالما أنه يبدو هكذا في عيون عدد

كبير من الفرنسيين. وليس واقعياً، طالما أن الفرنسيين، باعتقادهم خدمة بلادهم إنما يجحدونها في أفضل ما فيها ، وفي المنبع ذاته لعظمتها الوحيدة التي تضطلع بها، بكيفية أنهم ، هم بالضبط ، من يتناقض ومن يخون ذاته. لانهم قبلوا بإقامة التناقض بين الثورة الجزائرية و بين مصالح فرنسا.

هذا هو التناقض المزيف (بين مبدأين) ، والذي ينهش فينا ويشلنا . فهو ذاتي تماماً كخطأ، وموضوعي بشكل واسع ، عبر تعميم هذا الخطأ.

إني لا أستحق قط ، هذه الإمكانية التي توفّرت لي أيضاً، لأشرح وجهة نظرنا علانيةً، إذ ما اكتفيت بهذه الاعتبارات المجردة. فأنا لا أكتب للتوسع في الموضوع ، واعتبر أنه من المستعجل الآن تحديد بعض القضايا الملموسة بالفعل، حتى وإن استمر الظرف الفرنسي معاد بشكل خطير لفكرتهم . سأتطرق إذن الآن إلى فصل (المالية) وفصل (السلاح) وهما جد مترابطين.

ألاحظ بداية أن أحدا لم يلومنا جدّياً على إيواء جزائريين.

لقد بدأ في فرنسا إدراك ما هو ثمن أن يكون أحد ، صاحب سحنة شمال أفريقية، حتى وإن لم يكن حقاً جزائرياً . . . خاصة بعد تفاعل الصحافة أثناء اعتقالات فيفري، بصفة أكثر تعاطفا تجاه الفرنسيات والفرنسيين الذين لم يكونوا معنيين سوى بموضوع «الإيواء»، بل لقد أظهرت هذه الصحافة أيضاً ، تفهماً نسبياً ، تجاه الذين اشتبه بذهابهم أبعد من ذلك.

ليس لدي أوهام حول الصحافة الكبيرة والقوى التي تتحكم فيها، دون أن أستطيع منع نفسي من التفكير بأنها قدمت دون أن تريد درساً مدهشاً لصحافة اليسار . إن مرة أخرى، بالفعل ، كنا موضع انتقاد من جانب اليسار، وباسم (الرأي العام) زيادة ! وبالتأكيد لا مكان هنا للغرابة . فهذا اليسار الذي يضع نفسه نظرياً في المعارضة ، دون أن يستطيع المعارضة لسياسة الحكومة، بشكلٍ فعال، إنما هو مصاب بعقدة النقص التي تقوده إلى الشعور بالذنب قبل أن يكون متّهماً . من هنا رقابته المستمرة للذات، وإدانته لكل مبادرة يمكن أن تجلب له خطر وصفه «خارج القانون». في حين أنّ الصحافة الكبرى، ليس فقط لا تعاني من مثل هذه الانشغالات، بل أنها – بالضرورة – حساسة «للحدث» (إنّ تلقي Paris Presse مؤخراً لتقرير أرنو George Arnaud يشكّل مثالاً مقبولاً).

يبقى أن بإيوائكم لمناضل جزائري ، تكونوا قد قبلتم بالوقت ذاته ، تداعيات الارتباط بالثورة الجزائرية. لا تقولوا لي أن هذا الجزائري ليس مناضلاً بنظركم. ماذا تريدون أن يكون الجزائري اليوم غير مناضل في الثورة الجزائرية – وسواء أردتم أم لا – فالأمر مترابط تماماً . إذا إمّا أن تعترفوا أن هذا الشعب يقاوم الاضطهاد – اضطهاد مندفع، حدّ الإبادة – أو أن تلتحقوا بالجنرال ديغول الذي يتجرأ على الإعلان للسجانين: « لقد فهمتكم ».

هكذا، لقد تكفّلنا – من طرفنا – بالتوازي مع إيواء عدد من المسؤولين الجزائريين ، بمبالغ المساهمات الجزائرية. وبالمناسبة ذاتها بكل ما يمكن أن تؤديه هذه المبالغ من خدمات.

أعلم أنه من المألوف - ووفق العقيدة المثالية - أن لا يتحرك المرء إلا في سبيل القضايا كاملة الصفاء .إنّ هذا يعني خيار الجمود المستدام. فالخصم ليس سيئاً بالكامل، والصديق ليس طيباً بالكامل. ولا بد من رفض المانوية (عقيدة الصراع بين النور والظلام - المترجم). فهناك أسباب وجيهة وأخرى غير قابلة للتبرير، لا يجوز دفعها ظهراً لظهر.

لا أحد ينكر اليوم أن الإعدامات التعسفية والأكاذيب والمناورات المؤسفة لممثلي فرنسا في الجزائر، فرضت على الجزائريين في النهاية اللجوء إلى العنف . لكن - كما حلم البعض بقنبلة نووية «نظيفة» ، أو كما أراد البعض في فرنسا من الجزائريين الذين لفتوا ، وبوضوح ، الانتباه إلى أوضاعهم عبر الطريق الوحيدة التي بين أيديهم، أن يدخلوا بلطف إلى ديارهم جياعاً عزّلا واثقين، و أن ينتظروا أن يحمل الدرس ثماره لهم.. - هل أبالغ ؟ ربما تمنى البعض أن يراهم يحاربون شخصاً في وجه عشرين ، حسب «قوانين الحرب» ... لكن، من أملى هذه القوانين؟ طوباويات نبيلة كانت تملي تشريعاتها لزمن ، حين كانت الحروب فرنسية- ألمانية - بشكل عام ، حيث يحتفظ هؤلاء في أعماق قلوبهم العتيقة، منذ العمر المدرسي ، بالذاكرة الفاتنة للتحقيقات الصحافية الرسمية حول معركة فونتونوا Fontenoy.

لا . ليس هناك من «حروب نظيفة ». إن هذا المفهوم الذي تكذّبه كل التجارب ، ليس سوى مخاتلة خسيسة، بل مزدوجة الخسّة في الحقيقة، طالما أنها لا تستخدم اليوم إلا للإدانة (اللفظية) «للمبالغة» في القمع، وللرفض (العملي) لكل دعم لضحاياها .

أنتم فرنسيون، وأنتم «تشترطون» ألا يتابع جيش بلادكم لمهامه إلا وفق شروط جدّ محددة :

الكفّ عن تعذيب المناضلين والمشتبه بهم، الكف عن «تجميع» وإبادة الجماهير الجزائرية. بيد أن اقتضاءكم هذا ، ما زال رسالة ميتة. كما أنكم ما زلتم تستمرون بموقفكم بعيداً عن الجزائريين ، لأنهم يستخدمون طرقاً لا تؤيدّونها ، في مواجهة وسائل تدينونها ... ألم تفكروا أبداً بالوسائل التي توفرونها – يوما بعد يوم – للجيش الفرنسي ليمارس أساليبه المدانة ؟ حيث أنكم تستمرون بدفع ضرائبكم، وتمويل هذه الحرب، وتسليم أنفسكم قلباً وقالباً ، أو مواصلة التضحية بأبنائكم.

ما هي ملاذاتكم على الصعيد المدني والوطني؟ لم يعد من وجود للبرلمان، و(السلطة العليا) التي تمسك بكم ، إنما تحتقركم. لقد اختزلتم إلى عجز . أي حقّ تبقّى لكم، أنتم الذين لا تستطيعون تبديل أي شيء لكي تلعبوا دور الحكم، أو أن تقيموا أنفسكم قضاة تدينون نشاطنا ؟ قضيتنا ليست بالتأكيد بيضاء: لكن بأي لون تنظرون أنتم إلى (قضيتكم).

إنكم تسندون في الواقع قضية ما، سواء أردتم ذلك أم لا . والكلمات الخجولة التي تتلفظون في اتجاه ما ، لا توازن أبدا النتائج العملية لخضوعكم وإمساككم، في الاتجاه الآخر. إنكم في طرف الطغاة.

عندما يناضل شعب بكامله من أجل حياته، لا مجال لتحكيم معقول. حيث لم يعد الأمر يتعلق بلعبة تستطيعون صياغة (قواعدها). الله – الآب ذاته، قد لا يكون

له خاصية إصدار أي حكم، إذا ما كان حقاً قد خلق هذا العالم ، حيث أن الرجال فيه ، لن يستطيعوا التوصل إلى الاعتراف المتبادل إلاّ بالاقتتال على مدى التاريخ. وأنتم لستم الله - الآب. إنكم بشر، ولن تستطيعوا التهرب من المصير المشترك الذي لن يكون فرنسيا أكثر مما هو جزائري، روسي، أمريكي أو صيني. (لا بد من الاختيار)، ليس فقط من طرف الشفاه، لأنه ليس أمامكم سوى زمن عمركم للحسم في خياركم الإنساني وفي اختيار (الرجال)، ضد أي اندراج في حرفية القانون والتقاليد، وضد كل «الحجج الطيبة» التي لن يتوقفوا عن نفخها في أسماعكم ، من : حاجتكم للأمن، وخوفكم، و(المصلحة العليا للدولة) وكل تلك الاعتبارات العمياء للجوقات والأحزاب ، و التي تجعلون منها واجباً، لتجاهل واجباتكم الحقيقية.

نعم، لقد دعمنا وندعم وسندعم (الجزائريين على كافة الأصعدة). فنضالهم غير قابل للتجزئة، وهذا الرجل الذي تساعدونه ذات مساء، للتخلص من متابعات البوليس، ربما يطلق النار غداً صباحاً، على عدو للثورة، أو يفجّر أحد السدود الرائعة التي تفتخر بها العظمة الفرنسية، هكذا ستصبحون متورطين في فعلته. لكم أنتم أن تفصحوا عماً إذا كنتم ترغبون أكثر أن تكونوا شركاء (حرب إبادة) أو جريمة، سبق أن حددّت فرنسا طبيعتها ، حين وقّعت على(اتفاقية دولية) حولها ، دون أن تتوقف حكوماتكم عن تكرارها ، باسمكم وبفضلكم، بلا أدنى التباس.

إن أموال التبرعات الجزائرية ستستخدم أحياناً لشراء السلاح. ويحدث أن تستخدم هذه الأسلحة ضد بعض الفرنسيين: هذه هي دون شك خطيئتنا الكبرى

في نظر الرأي العام. لقد أردت التعبير عن ذلك بأوضح العبارات . ليسمح لي أن أثبّت الحدود أيضا. فمن غير المعقول -على الخصوص- الإدعاء بأنّ مساعدتنا للجزائريين ، إنما تعني رمي ظهر الجنود الفرنسيين . فميزانية الحرب لدى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية لا تقاس ، ببضعة ميليارات الفرنكات (الخفيفة) التي تصبها كل عام فيدرالية (جبهة التحرير) في فرنسا.

وإذا لم (يدخل) هذا المبلغ أصلاً، فإن الثورة الجزائرية سوف تستمر مع (وسائل مقابلة) و بطريقة لا تقلّ عن الراهن. فعلى الأكثر، يلعب هذا الإسهام دوراً في تجنيب وزارة المالية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية همّ الحصول على بديله الضروري ، عبر التوجه إلى بعض البلدان التي سوف تسعى ، من جانبها ، إلى التأثير على سياسة الحكومة ، باتجاه أو بآخر.

أما فيما يتعلق بإسهام هذه التبرعات في تأمين الحاجات المادية للفدرالية ذاتها، فإني أعبّر هنا علانية عن أمنيتي أن يستمر هذا الجهاز، بطريقة أو بأخرى ، بالاستفادة منه . حيث أنه في حال العكس، فإننا لن نتأخر عن رؤية إثارة أحداث هنا، سوف ينظر لها كل إنسان عاقل ، مهما كانت آراؤه السياسية ،كأحداث مؤسفة جداً.

فمن جهة، نحن لا نزيد في خطورة الوضع . ومن ناحية أخرى، فإننا نخفف من احتقانه في حدود الممكن. وليسمح لي بالتعبير ، في كل الحالات ،عن قناعتي المطلقة بأن عدد الفرنسيين الضحايا لن يكون أقل في نهاية المطاف ، لو أننا بقينا بعيدين عن هذا الوضع المأساوي.

لن أكشف عن سر من أسرار الدولة (الجزائرية) بالقول ، أنّه كان على فيدارلية جبهة التحرير الوطني في فرنسا ، أن تعطي رأيها في عديد المرات ، منذ ثلاث سنوات، حول اندلاع محتمل للعمليات العسكرية هنا بالذات.

لقد أكدت موقفي الثابت، أنّ سلوكاً كهذا سيكون كارثياً بالنسبة للقضية الجزائرية عموماً ، وللجزائريين في فرنسا خصوصاً ، باستثناء فترة عدة أشهر تلت ذات 13 ماي ، حيث وجدت نفسي ضعيف الحجة لأبيّن للمسؤولين الجزائريين ، أن اليسار الفرنسي أصبح على أهبة الاستعداد للوقوف بثبات ضد حرب الجزائر...

ومنذ ذلك الحين، استعدت ثقتي ،حقا أم مكابرة . إذ يبدو أن حركة عميقة قد انطلقت، وأنّ الظرف السياسي قد تحرك، وأنّ الشعب الفرنسي على طريق أن يتمالك نفسه . بيد أني أناشد هؤلاء الذين لديهم في هذه البلاد ، أي تأثير ، أن يمارسوه دون تأخير لتسريع هذا المسار: فإذا ما انخرطوا حقاً، دون انتقاص ودون أي تحفظ من أي طبيعة كانت ، فإن نجاحهم مؤكد . كل شيء سيتبع وستمضي الأمور سريعة. لكن إذا ما حدثت سقطة جديدة وإخفاق جديد للجزائريين على هذا الصعيد، علينا أن نعرف أنه لا يمكن لأحد - حتى هؤلاء الأكثر تفهماً منهم - أن يلجم عملاً تبرره من جهة أخرى ، أسباب عديدة يصعب الاحتجاج عليها. حيث أن الظرف السياسي لا يقف بالطبع - من منظورهم - في حدود التدخلات (المؤجلة دوماً ..) من اليسار الفرنسي: بل يشمل أيضاً ومثلاً، ضيق الصدر الحقيقي لـ 400 000 عاملاً، 400 000 ثورياً ، الذين ما انفك قلقهم يتصاعد من أن يصبحوا

ضحايا عندما يعيش ويموت إخوتهم المجاهدون، سلاحهم في يدهم. كما يشمل زيادة الاستفزازات الدائمة من قبل السلطات العامة التي لا تتوقف عن تعزيز القمع، والتي أضحت تشرك فيها « زرق الحرائق» و "الحركي " والخونة من كل نوع[1] .وأخيراً فهو يتضمن الضرورات الاستراتيجية لقيادة أركان جيش التحرير الوطني، التي يمكن لها أن تقدر يوما أن استعداداتها لدعم النضال على الأرض الجزائرية ستتعزّز كثيرا بفتح جبهة ثانية – ولو عابرة – في فرنسا بالذات.

هذه هي حاليا المسؤوليات التي يتوجب على كل منّا مواجهتها. إنه لأمر لطيف أن تصدر شهادات اعتراف بأن نشاطنا قد يكون سمح بتجنب هذا أو ذاك[2] – غير أن الماضي لا يهمّ إنما ما يعنينا هو الحاضر. حاضر مثقل بالتهديدات أكثر من أي وقف مضى.[3]

يبقى لي كلمة أخيرة حول موضوع «الفلوس». لقد تجرأ بعض «الصحافيين» على الكتابة بأننا «مدفوعو الأجر بسخاء». لو تعلق الأمر بشخصي، لما توقّفت عند

---

(1) انظر نشاط كلود بودريه Claude Boudret في هذا الصدد ، (سؤال خطي لمحافظ الشرطة، ومقالات أخرى وخاصة في فرانس اوبسرفاتور تاريخ 5 ماي) .يجب على كل صحافة اليسار أن تقوم بحملة فعالة ضد توظيف «الحركي» في فرنسا ، حيث أن الوضع أصبح بسببه على حافة الانفجار.

(2) «... سيكون غدا لهؤلاء الرجال والنساء مكانا مضيئا في قلوب الجزائريين ويصححون في الجزائر صورة فرنسا التي يمكن لنشر وثائقها بعد الحرب أن تبين بشاعتها. من يعرف فيما إذا لم يكن وجود بعض الفرنسيين إلى جانب الجزائريين قد منع من انزلاق الجزائريين في فرنسا نحو استراتيجيات مجنونة لحرب شاملة ضد جميع الفرنسيين، كنا قد اعتقدنا اقترابها في عديد المرات ؟»
كلود بودريه – فرانس اوبسرافتور لـ 3 مارس 1960.

«... سندرك فيما بعد، الوزن الذي تركه هذا الحضور لتجنب اتساع الإرهاب في فرنسا. وسنعلم لاحقا حينما يحل السلام، ثمار صداقة استمرت حتى محاذير السرية وعذابات السجن».
(جان ماري دوميناش J.M. Domenach في الاكسبريس 24 مارس 1960 ومجلة Esprit عدد أفريل).

(3) إن بعض الاعتداءات التي أثارت الصحافة حولها ضجة كبيرة منذ بضعة أيام، يجب ألا تثير أي وهم. حيث أن منظمة جبهة التحرير الوطني في فرنسا لا علاقة لها بها على أكبر ترجيح، أو على الأكثر، يمكن أن يحدث في بعض الحالات الواضحة، ولبعض مناضلي القاعدة أن يكونوا مسؤولين عن تجاوز التعليمات. من الواضح أن نسبة «التجاوزات» تبقى ضعيفة جدا قياسا بوجود أربع مائة ألف جزائري، متضامنون جميعا مع إخوتهم المجاهدين ويعانون من عدم إمكانية اللحاق بهم. حيث بدل أن نحنق لاكتشاف «موجة إرهاب» جديدة في عموم الساحة، من الأفضل أن نتحصن بالواقعية ونعترف بتحكم فدرالية جبهة التحرير الوطني، الحقيقي والكبير، بالهجرة الجزائرية.

هنا فقط. لكن ، لا يمكنني أن أتحمل أن يعامل كل هؤلاء النساء والرجال ، الذين ضحوا لخوض هذه المعركة دون أن يطلبوا يوماً شيئاً بالمقابل - «كمرتزقة» ومتهمين بالعمل «لفوائد مالية». كما استطعنا قراءته مثلاً بريشة السيد بول أدولين Paul Adeline في صحيفة تتصف عادة وعموماً ببعض الرصانة وبعض الموضوعية.[1]

سأقول هنا إذاً ، ما قلته في مكان آخر، لم نتقبل أبداً من الجزائريين، على الصعيد المادي، سوى المبالغ الضرورية جداً لإتمام المهمات الموكلة لنا.

(1) Reforme 5 مارس 1960.

الفصل الرابع

رفض الخدمة (العسكرية) من أجل خدمة (الوطن)

إن الاتهام الذي يوجّه إلينا – وهو الأخطر بالتأكيد – يتعلّق بتشجيع هروب عدد من الشبان الفرنسيين من الخدمة العسكرية. سأحاول الآن توضيح الأمر، في الخلفيات والأفعال.

نتذكر دون شك أحداث 1955 ، حين تظاهر جماعياً وبصيغ متنوعة ، شباب دعي لاستئناف الخدمة العسكرية والذهاب لاحتلال الجزائر مجدّداً ، معبراً عن رفضه . ونعرف أيضاً ماذا حدث حينها: حيث لم تقدّر أية منظمة سياسية أو اخرى جدوى مساندتهم ، فتمّ شحنهم بالقوة. وحدث أن تمّ تحويل عدد منهم سريعاً لأداء مهمات قاتلة، مما سمح لبعض القادة من أصحاب "الوطنية الحاسمة" أن يتخلص – بكل شرعية – من تلك النعاج الضالة.

وإذا ما قلت أن هذا التخلي المرعب ، إنما هو عارنا، فليس ذلك في إطار تبسيط الحديث. إنّي أعي، في الواقع، اقتسامي المسؤولية مع كل رجال اليسار الذين تمنعوا

عن التدخل (أو الذين تدخلوا ليعبروا عن أسفهم). من المؤكّد، أنه لم يكن باستطاعتنا إجبار الأحزاب على التحرك. لكن كان بإمكاننا أن نذهب ونعلن أمام أبواب الثكنات وأرصفة محطات القطار،عن تضامننا مع هؤلاء الفتية الذين ، وهم في الثاني والعشرين من عمرهم، ومخاطرون بحياتهم، إنما كانوا يقدّمون درسا بمثل هذا الوضوح عن الواقعية السياسية. حيث عرفوا كيف يستخلصون النتائج الوحيدة الممكنة لما لم نكن نتوقف عن إبلاغهم به منذ 12 شهراً : أن هذه الحرب الوقحة عبثية ، وأنها ستشجب يوماً ،من قبل هؤلاء الذين -ذاتهم - كانوا يرمون بأنفسهم فيها. إننا بتركنا هؤلاء الفتية لمصيرهم ، نكون قد تصرّفنا كمثقفين غير مسؤولين، واقترفنا إثما حقيقيا.

لو تساءلت عن مساهمتي الشخصية في هذه الجريمة، فإني أعتقد أن إبصاري فيها علامة خطورة استثنائية تنسب - في بلد ، لا يتردد رغم كل شيء ،عن إعلان بعض المناهضة للعسكرة - إلى العصيان، (والهروب من الجيش ورفض الخدمة). هذه الشكلانية الغربية (حيث أن مضمون الخدمة بالذات ،غالباً ما يكون موضع احتجاج) يمكن لها - دون شك - أن تفسرّ كفاية بالشعور أن هذا الخدمة تمثّل البرهان الوحيد (المعاش) كمشترك بين كل المواطنين، إلى درجة أن كل شخص يتخلف عنه ، يبدو كما لو فقد كل ارتباط ملموس مع الجماعة الوطنية.

لقد كنّا بالتأكيد حساسين لهذه الظاهرة. لكن يجب أيضاً ، ملاحظة مكانة شعور آخر ،برزت لي منذ ذلك الحين وبشكل قطعي، طبيعته المخادعة: لقد كنّا،

كمثقفين وبرجوازيين قليلاً (وهي حال معظم زعماء اليسار) ميالين - قليلاً أو كثيراً - للتفكير، بسبب عقدة النقص فينا، وبسبب كوننا غير بروليتاريين، بأن وظيفتنا الاجتماعية تتمثل بترجمة تطلعات الجماهير، ومتابعة أصدائها على طول خط ظهورها.

حينما منع 600 عنصراً ، في 6 أكتوبر 1955 قطارهم - في محطة ليون للقطارات- من الانطلاق عندما قرعوا جرس الإنذار، أخذنا وقتنا للتساؤل عما إذا كان الأمر يتعلق بحركة جماهيرية ؟ وهو لم يكن كذلك دون شك . غير أن السؤال الذي طرحناه كان - مع ذلك - عبثياً، لأن الجماهير لا تتحرك أبداً بشكل عفوي . وما حمله لنا هؤلاء الفتية (على صينية) ، إنما هو هذا المؤشر إلى ميل عميق داخل الجماهير. مؤشر يمثّل العنصر الوحيد الذي كنا ننتظره ، والذي يوفر لنا إمكانية إثارة حركة جماهيرية حقيقية . بيد أننا لم نع ذلك إلا متأخرين، وكان لا بد من معاودة كل شيء.

خلال الفترة الصعبة التي تلت ، وتميزت بالخذلان الرهيب لهؤلاء الشبان ، وبزيادة خيانة غي موليه (Guy Mollet 6 فيفري 1956) من خطورتها، كنت قد صادفت هنا وهناك، لكن دائما منفرداً أو بعدد ضيق، شباناً من كل الانتماءات، يطرحون (مشكلتهم).

ثم خلال سنوات (وحتى ربيع 1959) ، رفضت إعطاءهم أدنى نصيحة لهم، لسببين : من جهة، لم يكن المناخ مساعداً بعد ، ومن جهة أخرى لم تكن هذه

المشكلة مشكلتي. أقصد أنني لست في وضعهم ذاته ، فلم أعد في عمر (الخدمة العسكرية)، كي أسمح لنفسي بالنصح بموقف معين ، قد يجرهم إلى مخاطر أصبحت - شخصياً - في منأى عنها.

في ذات يوم من فيفري أو مارس 1956، دخل شخص مجهول ، يبدو في الـ 25 من عمره، غرفة كنت أتقاسمها مع شاب جزائري في مصحّة في Villier sur Marne ، أتى ليطلب مني القيام بندوة في مدينة / متز/ Metz ،حول حرب الجزائر، أمام عدد من مجموعات شبابية. فأشرت بعناء وبحركة غامضة إلى البناية التي تحيط بنا، حيث أجابني أنه يعلم ذلك، وأنّني سأجد بالتأكيد طريقة لتسوية الأمر إذا ما أردت .

وبعد أيام قليلة، انسليت من الغرفة ، وركبت القطار نحو/ متز/ لأجد نفسي وجهاً لوجه ، مع مئة من الشبان الذين لم يبدوا ارتياحهم بعد عرض طوال ساعة ونصف ، فبادروا بإخضاعي بعدها لساعتين من الاستجواب .حيث تقدم مني أحدهم - وبحماس - ليسألني عماً إذا كان عليه أن يقبل الذهاب إلى الجزائر.

قلت له : "لا يمكنني أن أجيبك " . وبعد 20 دقيقة عاود محاولته، فرفضت مجدداً شارحاً له ، أن الفرق بين أوضاعنا الخاصة يمنعني من الإفصاح عن رأيي . ثم نهض للمرة الثالثة ، حيث قد يكون رفاقه أخذوا عليه فشله، يلحّ على الجواب: «إني لا أطلب منك أن تقول لي ما علي أن افعله، بل أريد فقط أن أعرف ماذا كنت ستعمل، لو أنك كنت في مكاني». وأمام محاولتي التهرب مرة أخرى ،موحياً أن طرح المسألة

-هكذا - أمر غير واقعي، فإذا به يردّ علي بنبرة غاضبة بعض الشيء: «حسنا، ابذل جهدك». حينها قررت أن أجيبه . وعند الساعة الواحدة صباحاً، فرغت القاعة وتقدم مني ما يقارب العشرة منهم ، لشكري على قبولي إجابتهم، والتأكيد على رغبتهم التعرف على رد فعلي فقط، وعلى أنهم كبار وقادرون على تحديد موقفهم بنفسهم ..وأصبح بإمكاني المغادرة دون أن أقدم لهم أدنى نصيحة . . .

لقد عشت هذه التجربة بصيغ مختلفة عديد المرات بين 1956 و 1959 ، لذا ، لا مجال إذاً ، لكي يأتي أحدهم اليوم ويقول : أننا حرّضنا الشباب على الهروب من الخدمة. أو بالأحرى ، فلنعترف بأننا جميعا قد حرضناهم. وجميعنا ، من محرري «فرانس سوار» و«اللوموند» و Humanité في كل مرة سمحنا - في كتاباتنا وتحاليلنا وتحقيقاتنا - بظهور الحقيقة المخيفة، التي لم تتوقف حرب الجزائر عن تجسيدها وبشكل أكثر فأكثر صراخاً . هذا ما كان بالتأكيد عفوياً . .

يبقى هناك واقع، أنّ هؤلاء الشباب لو انخرطوا في إطار حركة ما، فإن ذلك كان سيعود في قسط كبير إلى ما نكشفه لهم - نحن - عما تقتضيه هذه الحرب التي نعتبرها وقحة، بينما هم ملزمون بالخضوع طيلة 27 شهراً ، لاختبارها اليومي.

لهذا كله ، يبدو لي أننا أضعنا وقتاً طويلاً حتى تحركنا لمساعدتهم . وحين خلصنا من جهتنا بضرورة الحديث في " الحقيقة من أجل . ." ...Vérité pour ، كانت اللعبة قد انتهت : حيث في الوقت الذي كانوا مازالوا يحتاجون فيه - بالكاد - لدعمنا الإعلامي ، كانوا قد أصبحوا في مستوى الفعل وتغطية (الحركة) التي أنهضوها حديثاً .

فصحيفة «المقاومة الفتية» أضحت هنا. وشبكات الاستقبال أنشئت في مختلف البلدان المحيطة بفرنسا، وعقيدتهم تستكمل ملامحها، وبرنامج عملهم قد أعد [1]، وبعض الفتية الذين (هربوا) من الخدمة والذين عينتهم المنظمة المركزية يتوطّدون في كل مكان من أوروبا - حتى داخل فرنسا- للنهوض بمسؤوليات محددة.

بعضهم عبر من عندنا . أقصد أنهم حضروا إلى" المقاومة الفتية "عن طريق قناة الدعم العملي . نحن فخورون بذلك . لكن يتوجب على هؤلاء الشباب ألاّ يستسهلوا أي خلط بين «المقاومة الفتية» و «شبكة الدعم ». فمن الطبيعي في الحقيقة، أن يختار البعض التمرد أو رفض الخدمة العسكرية دون أن يكونوا من أنصار الدعم العملي للجزائريين ، وآمل أن أكون قد أوضحت كفاية أن مسؤولي (المقاومة الفتية) لم يكونوا بحاجة إلى أي دعم خارجي ليضعوا تصورهم لمشروعهم ولكي يقف هذا المشروع على أقدامه.

---

(1) - « ليس الامر مجرد شبكة بسيطة لاستقبال الهاربين الرافضين للخدمة ، بل حركة مقاومة لحرب الجزائر وللفاشية تتوجه إلى عموم الشباب الفرنسي». هذا ما جاء في نشرية (المقاومة الفتية توضح ...) حيث التأكيد في عديد المناسبات على إرادة تنظيم مقاومة الشبيبة الفرنسية، باشكال عديدة، علنية وسرية.
بل أن منشوراً ، وزع في الأيام الأخيرة من شهر ماي ، من قبل أعضاء في PSU (الحزب الاشتراكي الموحد) " أيدته عدة مجموعات من طلبة باريس " ذهب حتى إلى رفض الاشكال السرية «... إننا نعتقد في الوضع الحالي أن النشاط الأكثر فعالية ليس رفض الخدمة، بل العصيان، ليس عصياناً فردياً بل جماعياً، نريد أن نقاوم لكن كفرنسيين وبوجه مكشوف».

سأسجل في هذا المجال– الآن – نظرتنا تجاه رفض الخدمة العسكرية .

بداية نحن سعداء لرؤية اتساع هذه الحركة منذ بضعة أشهر، و إننا نضع كل ما لدينا من إمكانات للمساهمة في تسارعها . إنّ شلّ العمل العسكري الفرنسي في الجزائر هو واحد من النتائج التي ننتظر. ومن وجهة النظر هذه، يبدو لنا متساوياً : سواء وضع المتمردون أنفسهم في إطار (اعتراض الضمير) بكل بساطة وصفاء، أو اختاروا النضال ضد الفاشية، أو التزموا جانب الشعب الجزائري.

مع ذلك، فإن النظر إلى رفض الخدمة من زاوية أخرى، يسمح لنا على العكس أن نرى الفروقات الهامة ، بين أن يكون هذا الرفض في إطار أو آخر من الأطر الثلاثة المذكورة.[1]

1 ـ إعتراض الضمير

يمكن له ذاته أن يتوجه بطريقتين مختلفتين . إمّا الاعتقال الطوعي أو المنفى. ما هو إيجابي في اختيار الأول يتعلق بقيمته كشاهد ، أما في الثاني، هناك الإمكانية التي تتوفر للمتمرد أن يصبح مفيداً بانخراطه مثلاً في خدمة مدنية دولية، أي المساهمة بطريقة وبأخرى في نشاط إنساني (وخاصة مساعدة اللاجئين الجزائريين في كل من تونس والجزائر).

---

(1) هل هناك من حاجة هنا، للتوضيح أثناء الحديث عن كل من هذه الأطر، أننا لا نهدف بأي شكل إلى الإيحاء بالتمييز الأخلاقي بينها؟ فالفعل الأخلاقي الحقيقي في مجتمعاتنا الراهنة، يقع بالضبط في مستوى الرفض. أما فيما يخص الامتدادات الايجابية التي يمكن أن ترتبط بهذا الرفض، فإنها تتعلق (بلاخلاقية سياسية) اكثر تعقيداً ،وحيث أن إحداثياتها لن تظهر واضحة وبسرعة لجميع هؤلاء الذين – في وحدتهم لا بد أن ينجزوا خيارهم الأول بداية : أي الاشتلاع من الوسط التقليدي – رفض التخويف من قبل (الافكار) السائدة ؟ تأكيد العدالة في وجه القوانين. هذا هو الفعل الحاسم، لأنه وحده من يسمح للرجال أن يكونوا في مستوى التأثير. إننا نعتقد بحزم ، بضرورة الالتزام على الصعيد السياسي، لكن لا توجد سياسة إنسانية – أي فعالة – دون أن تكون مشروطة ومرتبطة دائماً بقرار أخلاقي.

سياسياً، يبقى الأمر مرتبطاً بالظرف المعني . إذ قد تصبح الشهادة فعلاً رئيساً. كما كان الحال مع /هنري مارتان / في سجنه ، بالتأثير الذي أحدثه في المفاوضات مع فيتنام ، بما يوازي انتصار جيش (فيات مينه) في " ديان بيان فو" .

لكن ما هو الحال اليوم مع : - Le Meur- Magnin- Alban liechti أو Mignore ؟ (البان ليشتي – مانيان – لومور – وميتيوريه.)

وبالتوازي، لو حدث وسافر غداً ،آلاف الشباب الفرنسي إلى المغرب ليعملوا سوية على تحسين الوضع المأساوي للاجئين الجزائريين، فإن حملتهم هذه ، ستأخذ بالتأكيد بعداً سياسياً هائلاً .

بيد أننا نلاحظ عزوف اليسار عن مساندة المتمردين السجناء، وغياب ما يؤهل المتمردين في المنفى للبحث عن أفضل فعالية على الصعيد الجماعي . كما علينا أن نلاحظ أن (معترضي الضمير الحقيقي)، فقط، هم أناس غير عنيفين. أما المتمردون الآخرون (يعترضون) ليس على الحرب بشكل عام ، بل على حرب الجزائر بالذات، وفي حدود أن" القضية الجزائرية تبدو عادلة في نظرهم (أو أكثر عدالة من "القضية الفرنسية ")، بينما يتميز اللاعنف بمنطقه الخاص . وكي أتحدث بصراحة أكبر، فهو يمثل (موقف الضحية) . حيث يجسّد مثال أخلاقية الخد الأيمن والخد الأيسر تعبيره الكامل .

وإني جاهز تماماً للاعتقاد بأن اعتماد بضعة مئات الآلاف أو الملايين من الضحايا معاً لخيار هذا الموقف [1] في ظرف تاريخي معين من الاضطهاد، سيجعل المسؤولين عن هذا الاضطهاد أمام مخاطر مواجهة متاعب جدية، لكني أجد صعوبة في تصوّر اعتماد فعّال لهذا الخيار من قبل - (غير الضحايا) - للاحتجاج ضد الوضع الذي يعني ضحايا ، هم ذاتهم ، لا يعتمدونه.

عديد الملاحظات تبرز هنا . من جهة، يحدث أنّ الضحايا "المفترضة" ترفض أن تعبر عن ذاتها كذلك. مثل تلك الأم الجزائرية التي فقدت ساقيها أثناء اجتياز الحدود، للجوء إلى الأراضي المغربية، فهي لا تنظر إلى الوضع في بلادها إلا بصيغة النضال، ولا ترى المستقبل إلا بنصر المجاهدين. وهذا العجوز المهجور في مجاعته، وقد تركه أبناؤه وأحفاده، واحداً بعد الآخر، دون إرادته أصلاً، للالتحاق بجيش التحرير الوطني، لن يمكنكم أن تنتزعوا منه أي تصريح غير التعبير عن إيمانه الذي لا يتزعزع بهؤلاء الرجال المجاهدين ، مهما كان الثمن الذي يتوقع سداده كي تستمر المعركة حتى تتوج بالنصر. بينما بدا لي دائماً أنه ، إذا كان من الحق المطلق لأي كان أن يمد خده الأيمن، فإنه لا يحق له بالدرجة ذاتها مدّ خدّ جاره. فلن يكون سهلاً على من هو ضحية أن يبشر بالصبر إذا ما اختارت ضحايا أخرى بقربه ، النهوض وسلاحها في يدها، في مواجهة الاضطهاد المشترك. لكن إذا لم تكونوا ضحايا أصلاً، أين لكم أن تجدوا التبرير لموقف سلبي، ببساطة ؟ بل أكثر من ذلك، أين ستجدون

---

(1) اعتبر هنا، من جهة أخرى، أن الفعالية الحقيقية لهذا الموقف تكمن في قوة المقاومة السلبية أكثر منها في الخنوع اللطيف والعفو الرؤوف عن الخطايا.

فكل موقف يستلزم ، حتى يكون موضع مسائلة (خاصة في ظروف صعبة) حافزاً بمضمون إيجابي، أو مثلاً أعلى أو إيماناً. ومن الواضح في حالتنا هذه ، أن على الحافز هذا أن يقع في ساحة المحبة (محبة القريب) أكثر منه في ساحة المقاومة السلبية (الجمود).

- في خيار الجمود السلبي - الإندفاعة الحاسمة والطاقة الايجابية التي ستسمح لكم «للظفر باللقمة» - هل من المحبة ؟ لن يكون بإمكانكم محبة جزاري" الآخرين. قد يكون أقصى ما لديكم هو أن تأخذوا مكان الضحايا، وأن تجعلوا من أنفسكم يوماً بعد يوم «ضحية» أكبر منها، بالخضوع لما تخضع له دون الردود كما هي تريد.

بيد أن الذهاب للجلوس في الشوارع، كعلامة احتجاج، حينما ننتمي إلى جماعة تقتل وتعذّب جماعة أخرى، لا بد لي أن أعترف - بأن هذا السلوك- غير كاف.

"اللاعنفي " هو محتج بامتياز. وإذا كان يثقل السياسة الرسمية ببعض الاحتجاج والإرباك، لا بد من أن نسجل بالوقت ذاته، أن "اللاعنفيين " اليوم ، اختاروا بالضبط الاحتجاج على السياسة الرسمية في بعض مظاهر تطبيقها. فهم ضد التعذيب وضد معسكرات الاعتقال، فهل هم مؤيدون لحق تقرير المصير كما حدده الجنرال ديغول وأعاد توضيحه في عديد المناسبات منذ سبتمبر 1959 ؟ وإذا ما كانت هذه حالهم، فإنهم سيضعون أنفسهم في تناقض مع أنفسهم، لأن هذا التصور يفترض متابعة خيار (التهدئة أو التسكين) التي ليست سوء (العنف ذاته) الذي تغذيه أسوأ الحجج، والذي يفرض منطقة الداخلي، أن يزداد بأشكال مختلفة لا يمكن تبريرها، بما في ذلك التعذيب والمعسكرات[1]

---

(1) - من المناسب - مع ذلك - أن نلاحظ أن المظاهرات الحديثة - غير العنيفة - جمعت رجالاً من كل الميول، حيث أن ثلثيها ليسوا أبدا من أنصار - اللاعنف - إنها ظاهرة رئيسة. وفي وسط هذه الكتلة البشرية المتموجة من نساء ورجال اليسار الذين لم يعودوا يؤمنون بالخيارات السياسية التقليدية، ولا يفكرون قط أيضاً أن يلتحقوا بعمل سري (مناهض للفاشية، أو مساند للجزائريين) ، ربما توجد نسبة هامة من أناس أصبحوا يعتبرون - اللاعنف - تكتيكاً سياسياً بين تكتيكات أخرى، قد يكون الوحيد المتاح، نظراً للتردد الذي مازالوا يكنّونه نحو كافة الأشكال الأخرى للنضال.

من هذا المنظور، يتوجب متابعة المشروع ، ليس فقط مع الاحترام والتقدير الذي يثيره هذا الحماس الحقيقي، بل أيضا مع التنبه الذي يفرض ذاته تجاه طريقة لا يمكن بشكل أولي إنكار كل فعالية لها.

قد يطرح السؤال حول العلاقة مع (اعتراض الضمير) ؟ أي العلاقة الأكثر مباشرة. إني ألاحظ بداية أن "اللاعنفيين" الفرنسيين يرفضون بالتحديد أي تنظيم (لاعتراض الضمير)، أي أن ينقلوه من الصعيد الفردي إلى الصعيد الجماعي. كما أعتقد أن الرفض يشجع في بعد موقف المحتجّين المؤسس بالكامل على الانشغال بالخلاص الشخصي. هناك بالتأكيد (موقف أخلاقي). لكن هذا الموقف إذا ما قطع الأخلاقية الرسمية، فإنه أيضاً ينغلق فوراً على ذاته، ولا يوصل إلى شيء كما لا يقترح للجماعة أي مستقبل مختلف عن الحاضر الذي يدينونه. فهو بالتالي موقف سلبي لا يتعارض مع السلطة إلاّ في إطار الشرعية السائدة من دون أن يهتم باستبدالها بصيغة أو بأخرى من صيغ الشرعية.

كل شيء يجري كما لو أن معترض-الضمير، وقد أدرك أن اللعبة الجارية مغشوشة، لم يجد أمامه من علاج سوى الخروج الماهر منها. بيد أنه، على ما يبدو لي من شجاعة خيار، فإني لا أستطيع أن أمنع نفسي من أن أرى فيه (خيار العجز).

2 ـ ميل لمناهضة الفاشية

هنا، يعطي رفض الخدمة (العسكرية) لذاته مباشرة ، مضموناً على علاقة مع الوضع الجماعي الذي أدّى إليه. فإذا ما قدرت أن الجيش الفرنسي منخرط في الجزائر في مشروع لا إنساني، شديد التشابه مع المشروع النازي في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، وإذا ما بدا لي علاوة على ذلك ، أن أصحاب هذا المشروع يفكرون بنقل الأساليب ذاتها ، التي يختبرونها منذ خمس سنوات على الشعب

الجزائري، إلى داخل فرنسا ... يحق لي بقوة أن أرفض لهذا الجيش الخدمات التي يطلبها مني، وذلك باسم المصالح العليا لبلدي. بيد أن هذا الرفض لا يأخذ كامل أبعاده ،إلا من اللحظة التي سوف استخدم عملياً (هذه العطلة) لحمل مساهمتي إلى إطار منظّم للنضال ضد الفاشية في الجزائر وضد تشييد نظام فاشي في فرنسا.

إن هذا الموقف لا يسمح لأحد بالهجوم عليه[1]، طالما أنه يتكفل بخلاص الجماعة. ولا بد للنضال ضد الفاشية من أن ينتظم في فرنسا ليواجه جميع الشبكات الفاشية التي أصبحت ناشطة بشكل خطير.

إنّ أفضل العناصر لهذا النضال هم بوضوح هؤلاء الشباب الذين يغادرون اليوم وحدات الجيش، والذين عرفوا طبيعة المهمة التي يكلفهم بها رؤساؤهم هناك منذ خمس سنوات، وطبيعة الدور الذي يتوقعون أن يطلب أداؤه غداً هنا. لكن لكي يستطيع هؤلاء الشباب إنجاز نشاط فعال، يتوجب أن يتمكنوا وبكل سرعة، بعد أن

---

(1) - باستثناء السيد دو فرجيه Duverger ربما، الذي لم يلمس بعد، ادنى عرض للظلم " من وجهة النظر الأخلاقية" في حرب الجزائر، أو ادنى محاولة لاستخدام الجيش لغايات سياسية - سوى عند قادة الجيش (صحيفة اللوموند - 27 افريل 1960) . هل يلزم الجواب؟ لقد قام به آخرون في مكاننا. وصحيفة اللوموند، التي لا تنشر غالبا نصوصاً جازمة كمثل نص السيد دو فرجيه، مارست النزاهة الشجاعة في ذكر الردود.

السيد جيروم لندون Jerome Lindon : «ان يقتضي هذا النوع من الحروب استخدام «السؤال» إنه البداهة»: هل تم الإعلان يوماً - رغم مئات الشهادات - عن إدانة، ولو مسؤول واحد عن التعذيب الذي نوهتم بشكل طبيعي في مقالتكم، عن وجوده ؟

السيد بيير فيدال ناكيه Pierre Vidal Naquet : «إنكم تعترفون بواجب الجندي الذي يتلقى اوامر التعذيب، بشقّ الطاعة. من الممكن ترجمة هذا الواجب حين يكون التعذيب عرضياً. لكن حين يكون سلوكاً - وهو كذلك - لن يكون هناك من واجب سوى الرفض الجماعي».

السيد جاك نانتيه Jacques Nantet : «لا يجوز رفض الخدمة - كتبتم -، إلا إذا أصبح الجيش إمبراطورياً ويخلص لمصالحه الخاصة خارج الإرادة الوطنية، والشرعية الجمهورية. والحال هذه، ها نحن نوجد بالضبط في هذه الوضعية وأنتم تعرفون ذلك جيداً منذ 13 ماي» اللوموند، 14 ماي 1960.

تركوا فرنسا للأسباب الأمنية المعروفة، من العودة إليها ومن التمتع بالسند الضروري من جانب الجماهير. حيث أن الزمن يضغط، ولا بد من تكوين مجموعات مقاومة قادرة. فالجيش يملك وسائل لا نملكها، ويعود لنا أن نؤمن من الوسائل ما لا يستطيع أن يحصل عليه أبدا.

من وجهة النظر هذه، فإن انتقال العناصر الرافضة أو المتمردة إلى الخارج، يجب أن ينظر له كمرحلة عابرة، نظراً لأن الهدف الرئيس هو إعادة توطيدهم على الأرض الفرنسية. حيث هنا تطرح مشاكلنا وهنا علينا أن نبحث عن حلولها.

ما هي - بالتالي - تلك القوى الحقيقية التي نستطيع الاعتماد على دعمها في نضالنا هذا ؟ هناك بالتأكيد أحزاب اليسار: الحزب الشيوعي، الحزب الاشتراكي الموحد. لكننا نخشى أن يلزمها أيضاً مزيداً من الوقت لمواجهة المسألة بطريقة جازمة وكافية الفعالية. بيد أنّ هناك حزباً آخر يتقدم لنا، لم يحاول أبدا أن يتجنب هذه القضية، معنيّ أصلاً أكثر منا بالنضال ضد الفاشية، وباستطاعته أن يحرك بين عشية وضحاها قوى أهم بكثير، وأقدر قتالية مما يتوفر لدى كل من الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي الموحد وتنظيماتنا الخاصة. هذا الحزب هو حزب جبهة التحرير الوطني، ومن غير المعقول أن يرفض شخص اليوم حرب الجزائر، من دون أن يطرح على نفسه السؤال بشأن تحالف ممكن مع هؤلاء الذين تتوجه هذه الحرب ضدهم .

أدرك جيدا أن فكرة مثل هذا التحالف، ذاتها ، تخيف عدداً لا بأس به من النفوس. وأعرف أيضاً أنّ عدداً منهم كان يشعر بجهوزيته لاجتياز هذا الخوف، في حدود 24 جانفي الماضي . .

أصلا، هناك عدد من الفرنسيين المناهضين للفاشية ،هم أيضاً مناهضون للشيوعية. وهذا لا يمنعهم قطعاً أن يشكلوا جبهة مشتركة مع الحزب الشيوعي فور أن يقتنعوا أن الفاشية أضحت هنا - فحينما يكون العدو واحداً ولا مجال لرفض مواجهته ، يصبح من السهل سريعاً ،التعرف في الميدان ، على حلفائه الخاصّين .
ولطالما أن الفاشية تنشط عملياً في فرنسا ذاتها، ولطالما أننا من طرفنا لسنا مهيئين للنضال ضدها، يصبح، الاستبعاد الأولي لفرضية تحالف مع الطرف الأقوى والأكثر تصميماً من بين خصوم الفاشية، موقفاً عبثياً وضحل الواقعية من وجهة النظر السياسية .

نلاحظ أن الدافع المناهض للفاشية يقترب هنا كثيراً من خطنا الثالث، الذي علينا أن نوضحه الآن، بالقياس مع هذا الدافع .

3 ـ خيار التضامن :

إذا ما كانت فرنسا تخوض حربا ظالمة ضد الشعب الجزائري ، فلأن القضية الجزائرية قضية عادلة. و لا مجال هنا للمماحكة .

بالتأكيد، يمكن القيام بأعمال نبيلة في إطار حرب غير عادلة، وأعمال إجرامية في إطار حرب عادلة. بيد أن هكذا مشاهدات لا تسمح بأية طريقة باستخلاص نسبي، يجهد البعض إليه عموماً. فقضية عادلة - تبقى عادلة أياً كانت أخطاء من يخدمونها. ويدل أن ننصرف عنها، فإن هذه الأخطاء تدفعنا - على العكس - إلى الالتحاق بها، لفعل كل ما من شانه أن تصبح أقل عرضة للخطر من قبل هؤلاء بالذات، وهم يضحّون من أجلها.

مع ذلك، فالتاريخ يبقى دائماً ذاته، فها هي عدائية العالم بكامله خلال ما يقرب من ثلاثين سنة، التي جعلت نظام ستالين شبه حتمي في الاتحاد السوفيتي . والجرائم الستالينية لم تسوّغ النظام الرأسمالي - ولو قليلاً - .

وشبيهاً بذلك، فإن ما تأخذونه على جبهة التحرير الوطني (حقاً أو باطلاً، وفي غالب الأحيان على أرضية التسليم بأخبار مزورة) يفترض أن تعيبونه على أنفسكم قبل كل شيء. فالجزائريون يقدمون ما يستطيعون في ظروف مذهلة، وضعتموهم بها أو تركتموهم فيها.

بالضبط، فبسبب من الانخراط في حرب الجزائر، وبهذه الإبادة التي لا تتوقف، وهذا النفي الفظيع للمستلزمات الإنسانية الأكثر جوهرية، فإنّه لم يعد بإمكاننا أن نحصر أنفسنا في دور الحكم. فإما أن نكون في معسكر أو أن ننتقل إلى الآخر. بل إن قناعة عدد من هؤلاء الشباب، وسط الذي يرفضون اليوم مواجهة الشعب الجزائري، أنهم -وعلى العكس مما يعتقد البعض- يخدمون فرنسا بانضمامهم إليه ، وأنّهم لا يغادرون سوى معسكر الفاشية.

السيد دو فرجيه Duverger ، من جهته ، لا يوافق على ذلك. فهو يذهب إلى حد التصريح بأن أصدقائي وأنا « لا يمكن الدفاع عنهم بالذات » . بداية ، سأخبره بأن هؤلاء من أصدقائي المسجونين، لهم كامل الحق حول هذه النقطة - برفع دعوى ضدك ، لأنهم لم يحكموا بعد. ولأنّه من الممنوع على الصحافي- من باب الرصانة والحياء الأكثر جوهرية من جهة ، وأيضاً من باب الشرعية ذاتها التي يرفع السيد دو

فرجيه لواءها -.أن يصدر أحكاماً مسبقة حول هكذا قضايا ..وعندما أتحدث عن الحياء المبدئي، أجد من واجبي إضافة، أن السيد دو فرجيه يحتاج إليه أكثر من غيره. فهو حسب اطلاعي لا يؤدي أية مسؤولية و لا يجازف بشيء : لا خطر الخدمة في الجزائر ولا أي التزام سياسي. الأمر الذي يسحب منه كل حق، ليس فقط في الحكم على المتمردين، لكن أيضاً في إنذار اليسار بالصمت، بينما يطرح تمرد آلاف الشباب، ونشاطنا الخاص مسائله على هذا اليسار، دون أن يعود للسيد دو فرجيه يوما أن يجد لها حلاً"[1].

(1) - فلنسجل زيادة ، أنه بعد أن حدد سياسة التمنع :" إن التزام الأحزاب والمنظمات الجماعية، بقضية مشتركة معهم (المتمردين) بشكل مباشر أم لا، سيمثل انتحاراً" ، لا يتأخر السيد دو فرجيه عن توجيه إدانة دون شفقة ، ضد هذا اليسار، "يحب المخاتلة، فسياسته دون عظمة، وخارج القياس مع خطورة المسائل ومع استعجاليتها".

الفصل الخامس

«أيّ سـلام كـان» ؟

ربما يستغرب البعض أمام ملاحظة تخصيصي كل هذا القدر من الأهمية إلى ردود أفعال واحد من نقادنا، بينما كنّا موضوع هجوم متلازم من قبل المعلقين الأكثر تنوعاً .إني أتصور في الحقيقة أن هكذا موقف قد يبدو جارحاً . فمن الأولوية أن نركّز على جوهر القضية وأن نبتعد عن النزول في مستوى الحوار إلى مشادات بائسة ... وعلى ذات الخط ، أعتقد أن البعض يفضل أن أنزلق بشكل سلس لمعالجة النقاط التي تعارضت حولها طيلة السنوات الماضية، مع رفاق رائعين (وبعضهم هو من أعزّ أصدقائي) من اليسار الفرنسي.

لكن يحدث أن تشكل هذه التعارضات والجدالات البائسة جزءاً من الحوار، وأن تكون نسيجه بالذات، . بحيث لا يمكنني شخصياً ، تمييزه عن كل النقاشات الحقيقية التي تعبرّ عنه يومياً هنا وهناك، إلاّ إذا أردنا أن نجعل منه محض حوار

أكاديمي . هل أعترف علاوة على ذلك ، بأنّي أسخر من اللباقة، حيث أن الرهان في الأصل، هو من نوع آخر. فالأمر يتعلق بمعرفة إذا ما كان شعبنا سيستمر في «ترك الأمور تجري على هواها» أو أننا سنتوصل نحن جميعاً إلى وضعه على قدميه ،وإلى جعله يمسك جيّداً بهذه الفرصة التي توفرها له اليوم بداية اليقظة.

لست أسير العدم، ولست أكتب لأي كان . بل إنني في الميدان وأتوجه إلى هؤلاء الذين تعنيهم القضية . فهم سوف يفهمونني، حتى ولو تشابكنا أحياناً.

وسوف يدركون على الأقل أننا نتقاسم جميعاً الانشغال ذاته . وأنه ليس لعنفنا المتبادل - والمحض لفظي - أن يجعلنا ننسى العنف الآخر الذي نريد مجتمعين التخلص منه.

سأحاول على مدى الصفحات التالية أن أوضّح ما يتطلبه الوضع منا. وعلى الطريق ، سوف أصادف مختلف الاعتراضات التي لم نتوقف عن التصادم حولها. لا يبدو لي سخيفاً أو خارج الموضوع، أن أفضح افتقارها للأساس، وربما أن أخلّص منها أولئك الذين ما زالوا مرتبكين بها. بعد ذلك، فإني لا أقرّ بجرم ولا أفتّش - لأنفسنا - عن أي تبرير. سوف أجهد فقط لرفع آخر العقبات التي ما زالت تثقل ظرفاً صعباً، وكثيرا من النساء والرجال الذين يصادفون منذ عشرين عاماً، عديد الأسباب القوية لليأس ، مثلما نلاحظ جميعاً.

سوف ألتفت مرة أخرى إذاً ، نحو السيد موريس دو فرجيه، لأطلب منه، دون أي نوع من خلفية المماحكة، إذا ما كان يعتقد حقاً بإمكانية ان يلصق بنا، مفهوم "السلام باي ثمن"، والذي يعلن -عن حق- قابليته للطعن .فهو يتقبل في الواقع أن

«استدامة الحرب تزيد من خطر الفاشية»، لكنّه يضيف أن "بعض أنواع السلم يزيد من الخطر بشكل أكبر" : "كل حلّ للتخلي (عن الجزائر) يقتضي عودة الجيش الفورية إلى المتروبول والترحيل الجماعي لفرنسيي الجزائر، مما سيعرّض بقوّة إلى خطر بروز ديكتاتورية اليمين في فرنسا".

تبدو لي هذه النقطة الأخيرة - بالضبط - غير قابلة للنقاش. والتمايز الوحيد الذي أضيفه هو أن الخطر يبدو لي ذاته تماماً في حالة " التخلي " كما في حالة استمرار الحرب. غير أنّ هذا التمايز ليس مهماً. فالمؤكد في كل الحالات هو أننا معارضون بحزم، كما كنّا دائماً، لكل حل من حلول "التخلي"، وسوف أذكر هنا مختلف الأسباب.

عندما يتم الحديث عن (التخلي) نفكر بداية بفرنسيي الجزائر. ولقد سبق لنا- أصدقائي وأنا - التطرق لذلك في عديد المرات، حيث أكدنا أنه لا يجوز الحكم بالمنفى على مصير هذه الجماعات الأوروبية التي يشكل الفرنسيون ثلثها، فلقد سبق وتكفلنا بمشاعر الخذلان المحتملة لديها ، بأن وفّرنا لها ولزمن طويل ، وسائل الاستمرار في سلوكها تجاه (الأهالي) هناك. بحيث أنّ النتائج التي نلمسها اليوم ، تعزى لنا ؟ إذاً - بمقدار ما تعزى لهذه الجماعات .

يبقى مع ذلك، أن أحداً لا يمكنه أن يتحمل المسؤولية في مكان الآخرين . بحيث لا نستطيع أن نتقاسم معهم المسؤولية التي يرفضون أصلاً تحملها ، بأيّة صيغة أو حدود. والحال أن هذا بالضبط هو ما يجري الآن ، على الأقل بالنسبة لغالبية هؤلاء

الذين يتوصلون إلى درجة التعبير عنها . هكذا يكون علينا أن نطرح المسألة، فقط ، على ضوء اعتبار الآخرين من «الليبراليين» الذين يجهدون لمجابهة الواقع، ومن الكتلة المجهولة التي لا يجوز الحكم المسبق على مشاعرها ، بسبب من الرعب المهيمن هناك.

إن المسألة إذاً، والحال هذه، إنما تطرح بصيغ جدّ واضحة. فمن جهة هناك ما يقارب العشرة ملايين من الجزائريين (ناهينا عماً سيصبح عددهم خلال عشرة سنوات؟) وهناك فقط 1,2 مليوناً من الأوروبيين .العشرة ملايين جزائرياً يناضلون من أجل استقلالهم . بينما الأوروبيون يسعون رسمياً لرفض هذا الاستقلال. وإذا لم يكن بمقدورهم تحقيق ذلك، لن يبقى لهم سوى التفاوض مع معسكر الخصم حول الغد. ومن الواضح أنه ليس بمقدورهم منع الاستقلال، في حين أن سياسة فرنسا الرسمية لا تتوقف عن إدامتهم في وهم توفر الوسائل الضرورية لمشروعهم .

هذه هي واحدة من الجرائم الفرنسية اليوم . نعم ، نحن أيضاً أسهمنا بها: حين تعاطينا بخفة مع مسؤولية تفلت تماماً من بين أيدينا. بل مازلنا نكابر بتحملها رغم كل التكذيب الذي تفرضه علينا الأحداث يوماً إثر يوم. زد على ذلك : لو أن الوضع – ولو أن ميزان القوى الذي هو مفتاحه –يميلان إلى فرض (حل غير عادل) علينا: حينها ربما، سنبرر لأنفسنا النضال – ولو دون أمل – من أجل حل عادل. غير أن الحال ليس هكذا.

فلقد استمرت الهيئات العليا للثورة الجزائرية، من/ لجنة التنسيق والتنفيذ CCE، ثم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، بالاقتراح على الأوروبيين في الجزائر، وضعاً طبيعياً تماماً لا يمكن أن يكون غير مقبول من قبلهم. فالأرضية السياسية التي أعدها المجلس الوطني للثورة الجزائرية في مؤتمر/ الصومام /عام 1956 حاسمة تماماً بهذا الشأن. حيث أنّه ، إذا ما اعتبر أوروبيو الجزائر هذا الوضع غير مقبول مع ذلك، فلأنهم لا يستطيعون، بعد أن أخضعوا شعباً طيلة أكثر من قرن لقانون الأقلية ، تقبلّ فكرة أن يخضعوا – هم – يوماً لقانون الأغلبية.

أعني هنا أننا تعلمنا، قبل عشرين عاماً، في ظروف مأساوية أن نقلق ونهتم بمصير الأقليات. لكن لا بدّ بداية ،من شرح لماذا نتوقف عن أن نكون حساسين لذلك حين يحدث أن تكون هذه الأقليات أغلبيات ليست أقل انسحاقا تحت أيدينا . وهذا هو بالضبط ما جرى في الجزائر طيلة خمسة عشر عاماً. كما يتوجب فيما بعد، أن نتساءل إذا كنّا حقا في المكان المناسب كي نلصق بالجزائريين التهمة التي أدناها عند النازيين . بينما يمكن لبعض المؤشرات أن تجعلنا نعتقد، أمام أنفسنا وبهذه المناسبة ، أنها أصابتنا واسعاً بعدواها . . .

في الحقيقة، لا شيء يسمح لنا أن نفتح اليوم ضدهم دعوى الميول. لا شيء ، سوى الشعور– ربما – بأننا ذهبنا بعيداً. وبعد كل شيء، ليس من المستغرب أن تصرخ يوماً بالانتقام، كل هذه الفظائع المتراكمة . فبعض الواقعية توحي في الحقيقة بهكذا تخوف.

بيد أننا نلاحظ – وقد تبع الذعر الخشية – أن هذه الواقعية الأولية لا تتأخر عن الانعكاس. حيث تصبّ في نضج مشروع استمرار الحرب . الأمر الذي يعمل بوضوح على تعاظم الخطر. لكنّ الجزائريين – في الواقع – ما زالوا حتى اليوم، يملكون أسبابا قوية لإرادة التخلص من الاستدمار والحفاظ بالوقت ذاته على التعاون مع كل الإرادات الفرنسية الطيبة. اليوم أيضاً ، ولا يعلم غير الله ماذا سيكون عليه الغد . . لكن علينا نحن بالتحديد، ألاّ نؤجل للغد حلاً، يؤشر كل شيء منذ اليوم على أنّه الحلّ الوحيد الممكن.

بماذا يفكر إذا هذا المليون وثلاثمائة ألف أوروبي؟ إننا ندّعي الدفاع عنهم، لكن ماذا نعرف عنهم؟ البعض منهم يتمسك بمنافعه التي كانت هائلة ، وهؤلاء لا يعنوننا بشيء بسبب هذه المنافع أصلاً. ومن الممكن أن نتأكد بالتالي أنهم قد اتخذوا منذ وقت طويل ، كل الاحتياطات المتاحة لهم. آخرون لم يغتنوا حقاً، لكنّهم يرفضون بكل وضوح ، أن يتنازلوا عن التفوق الذي مارسوه زمناً طويلاً تجاه عرق «أدنى»: وهؤلاء ليس لنا أن نرقّ ، زيادةً ، لمصيرهم . مما لا شك فيه، أنه من الصعوبة بمكان ، أن يصبح أحد بين عشية وضحاها رجلاً بين الرجال، لكن الأمر هنا يتعلق بتجربة جدّ إيجابية، ستؤدي لهم فوائد كثيرة. فهناك عدد منهم لن يستطيع، على الأرجح ، تجاوز التجربة: فاستمرار الحرب، لا بدّ أن يجعلها أكثر ضراوة لهم. وفي حصيلة الأمور، يجب رؤية أنّ المسألة بكاملها تتعلق بوقف النزاعات من جهة، ومن جهة أخرى بالموقف العملي الذي يتبناه الأوروبيون أنفسهم تجاه الجزائريين. وهذه النقطة حاسمة إلى أقصى حد. حيث أنّ القضية لا تنحصر جوهرياً في الحصول على ضمانات أكثر تحديداً من خلال المفاوضات ، تصبح نافذة مع وقف

إطلاق النار، إنه مانذا ستزن هذه الضمانات بعد عدة أشهر، إذا ما استمرت الريبة والحقد من طرف ومن آخر؟ لذا يتوجب إنهاض مناخ جديد، وإنجاز (المجتمع الجزائري) لأول مرة.

يعترف أصحاب «الأقدام السوداء» بعفوية أنهم يشعرون بالغربة حين يحضرون إلى فرنسا. ولا يشعرون أنهم في دارهم إلا على الأرض الجزائرية. حسناً، لقد حانت اللحظة لكي يدركوا أن شعوراً كهذا، ليس مجرد طبيعة البيئة من (هواء، ونوعية الضوء، وجمال المنظر) أو مادية (الارتباط بالامتيازات) بل له مقتضيات إنسانية، حيث أن الأرض الجزائرية هي أيضاً، وقبل كل شيء، هذا الشعب المسحوق والشجاع الذي يعيش ويموت من أجلها، تحت بصرهم ... وبسببهم.

لقد سبق لكثير منهم أن استوعب ذلك : فبالتأكيد، إن تضامنهم مع الجزائريين – رغم كل المخاطر التي قد يثيرها – فضل أن يجعل المستقبل مفتوحاً، وأن يؤشر إلى الطريق .. كما يسقي الأمل بأن يخلص الآخرون أيضاً إلى استيعاب هذه المسألة. هنا يصحّ القول بضرورة إعادة قراءة ما كتبه فرانز فانون حول هذا الموضوع، حين وصف سلوك هؤلاء الأوروبيين في المدن، والمستوطنين في الريف، ممن اختاروا مساعدة الثورة الجزائرية، حين عرفوا كيف يرون فيها المستقبل الوحيد الممكن لهذه البلاد.[1]

---

(1) العام الخامس للثورة الجزائرية (عند فرانسوا ماسبيرو Chez François Maspero: خاصة الصفحات 154 -160 والشهادتان المهمتان جداً في الملحق. يمكن أن يضاف لها شهادة السيد ماسيبوف Masseboeuf التي نشرنا منها مقاطع طويلة في العدد الخامس من VP (Verite pour) (حقيقة من أجل).

هناك أيضا الجيش . ولسنا بالتأكيد ميالين إلى تقزيم المشكلة التي يطرحها: فبقليل من التبسيط ، يمكن أن أقول أنه سيشكل من الآن فصاعداً العائق الوحيد الذي يفصلنا عن السلم. لكن يجب بداية أن نحاول فهم : لماذا «يمكن لعودته المباشرة إلى المتروبول أن تعرّض البلاد لأخطار جدية ببروز ديكتاتورية اليمين المتطرف في فرنسا» ؟ فإذا ما أجبت: بأن ذلك يعود إلى قادته الذين اختاروا الفاشية، سوف يتم التأكيد على أنني أبالغ، وأنه من الأنسب، وبحذاقة أكبر، الأخذ بعين الاعتبار عقدة الإحباط الرهيبة التي واجهها في فيتنام، عندما جيل مارتينيه Gilles Martinet وروجيه ستيفان Roger Stephane وبعض الآخرين، نسفوا بكتاباتهم ، النصر النهائي الذي كان الجيش على شرفة تحقيقه. ولسوف أقبل طواعية هذه النظرية، مع التحفظ حول بعض الشروحات ذات الطبيعة الفنية[1]، والتي بمظهرها ذي الإغراء الضعيف ، ليس لها أن تخفي بعدها الحقيقي . فمما لا شك فيه أنه كان على جيشنا أن يخوض ، في مناسبات عديدة ، منذ عام 1945، معارك لم يعدّه أحد لها، ولا تبدو شرعتها واضحةً ، أمام أوسع قطاعات الرأي العام. حيث يمكن اعتبار شروط المواجهة هنا كما لا يمكن تحمّلها.

كل المشكلة تتعلق – إذاً – بمعرفة الدروس والنتائج العملية التي علينا اليوم استخلاصها. فمن الواضح بما فيه الكفاية – والحال هذه – أن عقدة الإحباط

(١) – انظر مثلا، تعليقات الجنرال كاترو Catroux حول خيار ديان بيان فو لمجابهة قوات فيت مينه.

والشعور بالغدر من الخلف (من المدنيين ومن السياسيين) أدّت بالفعل إلى إغراء الإطارات العليا للجيش . إن اشتراك الضباط الجنرالات في مختلف المؤامرات التي هدفت إلى قلب السلطة المركزية، والاهتمام المعلن من قبل عديد/العقداء والمقدمين والرواد/ بإنجاز "الثورة الجزائرية " بديلاً عن جبهة التحرير الوطني، وبعد سحقها، كل هذا يمثل الأعراض الكثيرة والكافية. بيد أنه من الواضح أن العلاجين الوحيدين لهذه الوضعية هما : إما الفاشية أو وضع يد السلطة المركزية على الجيش .ولقد قيل أن ديغول قادر على تحقيق مهمة السيطرة على الجيش، غير أنه انحرف وراوغ ، ولنا أن نقدر اليوم نتائج مراوغاته الكئيبة. بالتأكيد لم يكن ديغول في تلك الوضعية المناسبة التي اعتقدها البعض ،رغم الدعم الكبير المعادي لمغامرة الفاشية.

لكن والحال هذه ، يبدو لي أن ديغول كان بإمكانه أن ينجح لو أننا ساعدناه ، أي لو أنه وجد قبالته معارضة ناشطة ومهتمة بفعاليتها . لذا فإن الطريقة الوحيدة لمساعدة هذا الرجل الذي يمتلك قدرات شخصية خاصة وينزع للحكم وحيداً، تتمثل في الحقيقة ، بالوقوف في وجهه وعرقلة مشروعه بشكل حاسم على كافة الأصعدة، كي يدرك جيداً أنه ليس باستطاعته فعل شيء من دون القوى الحيّة في هذه البلاد، وأنه مرتهن لها أكثر مما هو للمتآمرين الفاشيين الذين حملوه إلى السلطة.

لقد أصبحت المشكلة اليوم ،أكثر خطورة مما كانت عليه قبل عامين أو حتى في سبتمبر الماضي، ولم تتبدل طبيعتها على كل حال، فرجل واحد لن يستطيع أن

يضع هذا الجيش في المكان الصحيح الذي عليه شغله في هيكل الأمة. لكن لا بدّ من وضعه فيه ، والمطلوب هو معرفة الشروط التي تسمح بتحقيق ذلك . وبما أنه من المتوقع – مع الأسف – أن لا تتمكن "السلطة " الحكومية الحالية من فعل شيء، فإن الخلاصة الوحيدة تتجلى بضرورة وضع حد لهذه الحرب بكل الوسائل التي في حوزتنا بما في ذلك العصيان وترك الخدمة العسكرية ، حيث إذا ما تحركنا جميعا ، فإننا لا نخاطر أكثر من ترك الجيش يتصرف، كما سنكسب تجنب مفاجأة مبادرات الخصم في عمق نعاسنا.

قد تقولون أن الجماهير ليست جاهزة للسير معنا. لكن كيف لها أن تفعل إذا كنّا لا نتقدم ؟ هل ستتركون للفاشيين أيضاً ولمدة طويلة فرصة هزّها . فالفعل هو الذي يحسم الفعل، بينما لا تكفي الكلمات لشيء، خاصة عندما تبشّر بالإنتظارية والخنوع. فإذا ما كان الجيش يمثل خطراً حقيقياً كما تقولون، وهو ما نتفق عليه، فإننا مدعوون لمواجهته فعلياً دون إبطاء. أليس أول طريقة لمجابهته تقوم على الرفض الفوري للانخراط الذي يستخدمه حتى الآن ضد الشعب الجزائري، والذي يتأهب لحرفه ضد شعبه بالذات؟

إن القادة العسكريين الفرنسيين، ومهما طال أمد هذه الحرب، سيعجزون عن تحقيق النصر في الجزائر، وأياً كانت اللحظة – والحال هذه – حين يحل السلام، فإنهم لن يحصلوا على شيء ملموس في تسوية الأزمة، يمكن أن يكفيهم العزاء عن فشلهم . إنّ الزمن الحالي لا يعمل لصالحنا – نحن – إلا في حدود استغلاله للنضال ضدهم . " نحن بالذات "، دون أي تحفظ أو انتظار أي شيء : لا من السماء ولا من أي ملك كان لفرنسا.

نعم، إنه سلمنا حقا وسلم الشعب الفرنسي الذي علينا السعي إليه، ليس بالتأكيد سلماً «بأي ثمن» لكنه السلم الوحيد غير المأساوي الذي ما زال في متناول اليد.

لم يعد أمامنا حرج الاختيار ... فهل سيقود اليمين اللعبة حتى نهايتها ... أم أن معارضة اليسار ستضطره في النهاية إلى الأخذ بعين الاعتبار حقائق الواقع ؟ والأمر لا يتعلق أبداً " بالتخلي" فليس هناك أحد من رجال اليسار يفكر يوماً «ببيع» الجزائر رخيصة.

بل العكس هو الصحيح ، حيث تضرب هذه الرغبات منبتها في بعض أوساط اليمين، التي تقف حكوماته - بالضبط - عاجزة أمام تهديدات الجيش. وماذا لهذا الجيش أن يفعل - إذاً - تجاه يسار استعاد نضاليته، ومع طبقة عاملة موحدة في إضرابها؟

يجب الإلحاح مرّة أخرى . على أن قطاعاً هاماً من اليمين يحلم بالتخلص من العبء الجزائري. ولولا الخشية من اليمين المتطرف ومن انقلاب عسكري، لكان قد مضى في هذا الاتجاه ... لكن يحدث أن القوى الوحيدة التي كان هذا اليمين الرأسمالي و «الليبيرالي» يعرف الاعتماد عليها- أي الشرطة والجيش - هي التي ستخونه بشكل واسع في حالة هذه الفرضية. لذا فهو يستمر"مؤقتاً" وبشكل متواصل في التحاقه (من طرف الشفاه) بشعارات اليمين الأكثر رجعية، وبالتوازي سيستمر في هذه المناسبة ببذل الجهود الخجولة لعرقلة تقدم الفاشية، حول هذه النقطة أو تلك.

لكن ليس لنا أن نعتمد عليه لتحقيق هذه المهمة. حيث لم يعد هناك من شيء في أيدي هذا اليمين. وهو لم يعد يحكم. فسياسته الوحيدة أضحت محاولة كسب الوقت ، وتأخير موعد الاستحقاقات . وها هي السلطة تنتقل من تأجيل إلى آخر ، ومن استقالة إلى أخرى ، محدثة فراغاً أكثر فأكثر عمقاً، حيث يحضرّ اليمين المتطرف ضربته على جانبيه ، في الوقت الذي ينتظر اليسار استيقاظ الجماهير. فوفق هذه المسيرة والسرعة الجارية ، يبدو أننا جميعاً جاهزون للفاشية ولاستمرار الحرب في الجزائر.

إن اليسار، إذا ما افترضنا على الأقل تنشيط إرادته، هو الوحيد القادر – في هذه الحالة – على فرض السلم على القادة العسكريين دون أدنى (تخلي). كونه الوحيد القادر على أخذ حقائق الوضع بالاعتبار. هذه الحقائق تفرض اليوم أكثر من أي وقت مضى – وكائناً ما كان وجه التعاطي معها – الصداقة الجزائرية – الفرنسية، كوسيلة وحيدة لتوفير السلم ولعظمة فرنسا بذات الوقت.

عمّا تفصح هذه الحقائق بالفعل ؟ إنها تقول قبل كل شيء : إنّ الجزائريين سيتابعون نضالهم حتى الاستقلال . هكذا يصبح من غير المجدي تماماً المراوغة والتهدئة على أمل الوصول إلى نتيجة أخرى أيا كانت.

وتقول أيضاً إنّ جزائر الغد لن تكون تونس اليوم. وأن فرنسا خاضعة تماماً لرأس المال لن يكون لها أدنى فرصة لإنهاض علاقات متميزة معها . وربما كان التهديد الفاشي الذي يرمي بثقله على حكومتنا الحالية ،قد وفّر علينا في النهاية التجربة

المكلفة لسلام اليمين الذي كان سيؤدي إلى انطواء فرنسا على ذاتها، واحتمال زيادة خطورة جمود هذا الشعب عبر البهجة الخادعة لهكذا انفراج.

بينا يلزم على العكس وضع هذا الشعب على سكة الحركة، ليس فقط لإنهاء الحرب ،بل لعيش السلم ،ولمواجهة مشاكل العالم الجديد في ظروف حسنة. إذ لا بد من معاودة كل شيء . ولم يعد بإمكاننا أن نعيش إندفاعتنا المعهودة. لقد تأخرنا كثيراً طيلة السنوات الماضية. فالاقتصاديون الأقل شبهة بالتطرف، يتوقفون عن تذكيرنا أن حرب الجزائر ترهن طاقات الغد أيضاً بما هو أكثر خطورة مما تفعله اليوم؛ حيث سيكون علينا في جميع الميادين صعود المنحدرات الصعبة. وقبالتنا هناك – في هذه الأثناء – بروز سريع لمجموعة من الدول الجديدة والذي سيحرض على أكبر انتعاش عرفه العالم منذ زمن بعيد. فهل سيكون بإمكاننا الحضور في مختلف المجالات التي ستحتاجنا؟ وهل سنحسن ذلك دون أدنى خلفية للاستعمار الجديد؟ إن كافة حظوظ مستقبل حقيقي لفرنسا تكمن في الإجابة التي نوفّرها لهذين التساؤلين.

لقد قضى اليسار الفرنسي وقتاً طويلاً ، وهو يتساءل عما إذا كانت جبهة التحرير الوطني حركة ثورية بما فيه الكفاية لكي تستحق الدعم . لكن يجب أن نخشى تساؤل الجزائر المستقلة غداً عماً إذا كانت فرنسا اشتراكيةً بما فيه الكفاية ، لكي تستحق التعامل معها.

على كل حال ، لقد كان هذا مصدر قلق غريب لليسار . ومن المؤكّد أن البعض يقنع نفسه طواعية ، أن الانتفاضة إذا ما صمدت وقتاً طويلاً ، وفي مواجهة جيش

قوي ، فإن هذا يعني أن الشعب يقف وراءها. غير أن هناك استمراراً واضحاً في اعتبارها ثورة محض قومية وبقيادة برجوازية أو شبه برجوازية.

من المؤكّد، أن هذا الأمر في جزء منه، يمثل حجةً . بيد أني أجد فيه أيضاً التعبير عن رؤية شاذّة ، أضحى اليسار ضحيتها بقوة انعدام الحركة.

حجة لرفض النشاط إذاً. وانعدام النشاط يلزم دائماً بإيجاد تغطيات جديدة . إن اليسار ذاته يعرف جيدا هذه الجدلية البائسة ، حيث أنها لم تتوقف يوماً عن أن تكون جلية ، حتى ولو أن جلاءها لم يترجم قط ، إلا من خلال صيغ غير مجدية تماماً. البعض يلطم صدره ، مكرراً أنه لم يكن يفعل قط ما كان يجب عليه فعله. لكن هل يمكن الاستسلام لتأنيب الضمير، والمجاملة في إعلان المسؤولية، أن يهيئ أياً كان لمواجهة مسؤولياته ؟ كما أنّ الآخرين يباشرون نقداً ذاتياً ظاهرياً ، لن تتأخر الجماهير عن تسديد نفقاته: ماركسيون مزيفون لكنّهم (إيجابيون) حقيقيون يلقون على هذه الجماهير بمسؤولية قصورهم الخاص، تماما مثل لاروشفوكولد La Rochefoucould الذي ، دون أدنى وهم حول كل وجه من وجوهه، مازال يخاتل قارئه (كما يخاتل ذاته دون شك نصف مخاتلة) حين يعزو جملة قصوراته الخاصة إلى "الطبيعة البشرية" . لقد كان لاروشفوكولد ، كجميع (الأخلاقيين) عارفاً جيّداً، بالطبيعة الإنسانية، وبالأسلوب ذاته فإن ماركسيينا يبدون - إلى هذه الدرجة - غاطسين في معرفة المعطى دون أن يفكروا بعد ، في التأثير فيه.[1]

---

(1) لقد كتبت في مكان آخر، أن اليسار جنح إلى الخلط بين التقنية السياسية وتقنية الـIFOP / أهمية القوى العمالية الشعبية /. بالطبع ، لا أريد أبدا اعتبار التحقيقات - على اختلاف أنواعها - حول حالة الرأي العام ومختلف أمزجته، عملاً دون فائدة . لكني لا أومن أبداً أن النشاط - خاصة السياسي منه - عليه أن يختزل إلى الحفاظ المحترم على الأوضاع القائمة التي تصفها تقنيات الإعلام.

هذا هو ما يفسر (شكلانية) حكم اليسار حول الثورة الجزائرية.

الجزائريون يقولون عن أنفسهم وطنيين وليس ماركسيين، ولا يتلفظون بأية كلمة/مفتاح من معجم المفردات الاشتراكية: مذ ذاك ، تكون القضية مسموعة والمسألة منسقة، وهو ما لم تكنه بالنسبة لاشتراكية حيّة، ولماركسيين يعماون. حيث كان يكفي، للرؤية الواضحة، أن نطرح على أنفسنا عدداً بسيطاً من الأسئلة الملموسة، وأن نستفسر الواقع ، ليس بالاستناد إلى نظرية جامدة المفاهيم، أو مدرسية متحجرة بل من وجهة نظر النشاط الهادف (البراكسية) وحركة الرجال في العالم وفق الضرورات.

هكذا يمكن لنا أن نكتشف بسرعة واضحة:

أ - أنّ سلوك الجزائريين هو على علاقة حقيقية مع الضرورة . فعندما يستمر شعب في دعم نضال يكلفه مثل هذه العذابات، نكون على يقين أنه لا يفعل ذلك بحكم النزوة أو التدرب، بل لأنه يستشعر الحاجة الماسة على الصعيد الحيوي.

ب - أن الوطنية والمطالبة بالاستقلال هما الضرورة الأولى، والطريق الوحيد الممكن لشعب مظلوم -بالكامل ودون تفريق - كطبقة وكشعب (في عرقه وتقاليده وحتى دينه).

جـ- أن الوضع الاقتصادي للجزائريين لا يبرر فقط اعتراضهم الجذري على النظام الكولونيالي، بل علاوة على ذلك ، يفرض عليهم أن يتصوروا بناء الجزائر الجديدة وفق خطة عمل ، وفي إطار اجتماعي محددين بدقة.

إن المرحلة (الوطنية) للثورة الجزائرية، استكملت اليوم . فالشعب الجزائري قد وجد نفسه كشعب، وينظر للاستقلال كمرحلة يدرك أنه سيعبرها، لذا فهو يتهيأ أيضاً للمرحلة القادمة، المرحلة (الاجتماعية) للثورة.

كيف له أن يتجنب الانشغال بها ؟ إنه موضوع حياة أو موت . فليس له أن يحصل أبدا من الخارج (لا فرنسا ولا أي بلد آخر) على المبالغ التي ستكون ضرورية لحلّ المشاكل المالية لوجوده ، ولن يتمكن من تصور حلّها إلا عبر (الوسائل البشرية) وعمل الرجال.

وهذا يعني أنه ليس من نصف حل أو حل وسط . فلقد حدث تساؤل خطير ولمدة طويلة عن «تصلّب» جبهة التحرير الوطني. ولم نفهم لماذا لم تنتهز الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية هذه الفرصة أو تلك لربط الحكومة الفرنسية بـ«عجلة المفاوضات»،لا يعود لي هنا توضيح الأسباب في مكان الجزائريين ، بيد أن هناك سبباً على كل حال ، أثق أنه قد لعب دوره ويستحق التنويه به هنا، يتعلق باقتراح الحكومة الفرنسية، وقفاً لإطلاق النار، تتبعه فترة لعدة سنوات (تكون تحت تصرف الحكومة الفرنسية) تتمّ خلالها عودة الهدوء على شكل جلي. وفي نهايتها يتم استفتاء حرّ للشعب الجزائري.

ودون التوقف عند وجه السخرية لهكذا اقتراحات ، حتى مع افتراض إمكانية الحصول على ضمانات لتطبيقها على الصعيد السياسي، فإننا مضطرون للاتفاق أنها تشكل في – كل الحالات – من وجهة نظر إقتصادية ، فخاً ما كان للجزائريين – لو قبلوها –أن يتمكنوا يوماً من الخروج منه[1] لأن هذه الاقتراحات كانت تهدف، وكانت ستؤدي حتماً إلى نتيجة فشل الثورة الجزائرية.

فخلال عامين أو ثلاثة أو أربعة ، كانت فرنسا ستتابع مساعدتها الاقتصادية من جهة، ومن أخرى ستحافظ هناك على إداراتها وصناعاتها الاستغلالية وكل الإقطاعيات الاقتصادية التابعة لها. وهو ما يقود إلى القول إنّه : مقابل مبادلة مائة مليار سنوياً وخلق ٥٪ مناصب عمل جديدة، كانت ستجعل من المستحيل التنظيم العقلاني لاقتصاد الجزائر. أي أننا سنرى الحفاظ على البؤس الراهن دون أي مقابل على صعيد الإنجازات والآمال.

في حين أن التغطية البسيطة لنفقات ترميم الأراضي (العمل ضد التآكل، والتشجير) تقدّر بـ 800 ملياراً كتمويل تقني، فإنّ نفقات هكذا مشروع «بالإمكانات المتاحة للجزائريين» ستنخفض بألف مرّة، وستوفّر فرص عمل لمئات آلاف الجزائريين . لكنّنا نرى جيداً أن الفرضية الثانية تستلزم من طرف العمال أنفسهم التحاقاً عميقاً بالنظام القائم . هذا الانضمام بالنسبة للرجال الذين عرفوا النضال الحالي ،لا يمكن أن يتأسّس إلاّ استناداً إلى شعور استكمال النضال ذاته في التحرر والبناء.

إن هذه الرؤية لا تمثل فقط وجهة نظر رجال الاقتصاد ؛ و أنا شخصيا بعيد عن أن أكون اقتصاديا، علاوة على إحساسي الدائم ببعض الشك نحوهم. كما أنها ليست فقط وجهات نظر القادة الحاليين للثورة الجزائرية. إذ حتى و إن كانوا لا يتقاسمونها، فسوف يجدون أنفسهم مضطرين قريباً للاقتناع بها تحت طائلة عزلهم

(1) - قد يقال إنهم سيستأنفون النضال حينها، بيد أنه لا يمكن تحريك شعب ما ، مثلما تتمّ تعبئة الجيش الفرنسي.

عن وظائفهم ،لأن مجاهدي الجبال ليسوا بحاجة أن يكونوا قد قرأوا ماركس كي يقدّروا ضروراتهم الخاصة وكي يفهموا أنه عليهم مواجهتها بأنفسهم ، عبر تنظيمهم الذاتي ووفق طريقتهم ، ابتداء برفض التسهيلات المكلفة لكل تمويل رأسمالي - إن ذلك أبجدية الاشتراكية . وإذا ما عاد اليسار الفرنسي إلى وعي ذاته ، فلسوف يقتنع بها سريعاً.

.. إذا ما عاد لوعي ذاته . أي إذا استعاد مسكه بجلباب الواقع ،ولم يكتف بالملاحظة والتفحص ومعاينة الظرف السياسي وتوسيع البحث بمهارة المطلوبة . وإذا ما باشر مجدداً عملاً حقيقياً للتحول ، وتذكر أخيراً أنه في المعارضة، وأنه لا يعود له التوفيق بين مختلف المواقف والتساهل مع الطروحات المعادية ، مثلما كان يمكن ليسار في السلطة أن يتصرّف .

حينها، ودون شك، لن يجد أية صعوبة في التعرف على شركائه والحكم عليهم، وفق الواقع العملي ووفق سلوكهم الفعلي، دون المزيد من إلباسهم التصورات التافهة- ودون شك، لن يعرّض نفسه للمزيد من سخافة التشكيك بالمضمون الاجتماعي لأكثر الثورات شعبية، في الوقت الذي يبرر هذا اليسار عدم نشاطه الخاص، ليس فقط بالعطالة الشهيرة للجماهير، بل باستمرار المشاعر العنصرية والاستعمارية داخل الطبقة العاملة الفرنسية.

وإذا كان العمال ما زالوا مسممين بالخرافات العنصرية والاستعمارية ، فإنه يعود لليسار وعلى الأخص للحزب الشيوعي أن يحقنوهم بمضاد السم. غير أن التكرار الكئيب والممل للتبريرات النظرية لن يقدّم شيئاً . فالأممية البروليتارية وتضامن

المضطهدين، ليسا سوى صيغ ميتة ، لا أثر عملي لها طالما بقيت مطروحة في إطار يفتقر إلى كل ما هو ملموس . من الطبيعي أن تقدم الشروحات ومن الضرورة إقامة الحجة . إلاّ أن التفسيرات والذرائع لن توصل إلى شيء إذا لم تنشغل بالتوازي بإحياء السياق. وبداية ، يجب كنس ستار الدخان الذي يفصل – لسوء الصدفة – ما بين العمال الفرنسيين والعمال الجزائريين في فرنسا. فإضراب مشترك هنا أو هناك سيكون أجدى من عشرين نقاش "خلية التضامن. " كما يجب التوقف عن التعامل مع النقابيين الفرنسيين الذي يتعاطون مع النقابين الجزائريين كنقابين مصابين بالطاعون من جانب رفاقهم بالذات. فمثل هذه الإحتكاكات، لا تستوجب فقط السماح بها بل تشجيعها والحث عليها وإثارتها بكل الوسائل الممكنة. فمن الواجب أن يتعارف الجزائريون والفرنسيون في ميدان العمل اليومي بالذات، ومن الضرورة أن تولد الثقة المتبادلة بينهم وصولاً إلى الأخوة الحقيقية.

قد يقول البعض أن الأمر يدور في حلقة مفرغة .إذ لا بد للعمال الفرنسيين من أن يتجاوزوا عنصريتهم ، قبل كل شيء ، كي يحققوا الخطوات الايجابية المذكورة . بيد أن هذه النظرة عبثية ومجرمة. فالعمال الفرنسيون ليسوا عنصرين بكليتهم (يلزم الكثير لذلك)، كما أن عدداً لا بأس به منهم كانوا قد حاولوا بالضبط إقامة علاقات أخوية مع رفاقهم الجزائريين. فأن يكون قد استقبلوا أحياناً من قبل الجزائريين ببعض الحذر المتيقظ ، فهو واقع. ومن الممكن تفسيره بسهولة . بيد أن هذه الحالات الاستثنائية لا تزن شيئاً أمام الحالات التي لا تحصى، حين تمنّع الفرنسيون او وضعوا حداً لعلاقات قائمة، بأمر من أحزابهم أو نقاباتهم.

لقد كانت تخشى هذه التنظيمات القوية أن تصبح ممنوعة ...إنّي أقدر من جانبي – وعلى العكس من ذلك – أنها لم تكن لتغامر إلى هذا الحد، وأن خشيتها تتأتّى من تحليل مزدوج المغالطة للظرف السياسي الفرنسي.[1]

لندع تقديراتي جانباً . إذ لا بد لهذه التنظيمات من أن تصل إليها . كما أنها بدل إعداد الأرضية المناسبة، فلقد جعلتها أكثر وعورة بمضاعفة العوائق القائمة بالأصل. عدا ذلك، فإن أي حزب إنما يمثل أداة مشكّلة ومبنية لتحقيق غاية معينة؛ فأن ينشغل بصيانته الذاتية ليس بالأمر الغريب، بيد أنه لا يجوز الذهاب إلى درجة استبدال هذه الغاية . وضرورة توفير قدر من الحذر لا بد أن تخضع إلى جدلية رفض الاختزال إلى مجرد وضعية دفاعية. إن صلابة الجهاز لا يجوز أن تختلط مع القوة العميقة للحزب، هذه القوة التي تتلاشى منذ أن نتوقف عن استخدامها.

إذا كانت العنصرية تمثل شعور تفوق يقوم بوظيفة تعويض شعور عجز، فإن العمال الفرنسيين سيبرأون منه منذ أن يكتشفوا :

1 ـ أن بإمكانهم التأثير.

2ـ أن الثورة الجزائرية قوية بما فيه الكفاية ، جيدة التنظيم ، وحسنة التوجه كي تستحقّ تقديرهم. وهو ما يمكننا أن نوضّحه لهم كل يوم، بمائة طريقة مختلفة . ماذا ننتظر لفعل ذلك؟

---

(1) – أولا، سنبقى بلا شك، دون الحقيقة إذا ما قدّرنا أن 10٪ من المناضلين النقابيين كانوا جاهزين للعمل من أجل التضامن بين العمال الجزائريين والعمال الفرنسيين إذا ما ساعدناهم بدل إعاقتهم، وبإمكان قادتهم أن يطلقوا وبسهولة مسيرة لا رجعة فيها. فموقف فرنسي إيجابي كان سيعطي للعمال الجزائريين الثقة المطلوبة، والثقة الجزائرية هذه ستشجع بالمقابل تعميم مثل هذا الموقف الفرنسي. و من الممكن تحقيق نجاح العملية ، خلال عدّة أشهر. ـ ثانيا، إن نظام ديغول بحاجة كبيرة للطبقة العاملة كي يخامر بمنع الحزب الشيوعي أو C.G.T. (المنظمة العمالية المرتبطة به). الخطأ هنا هو في الخلط بين الجمهورية الخامسة والفاشية، فهي تحضر الطريق لها (بعد استغلال التهديد بالفاشية لإنهاض ذاتها) لكن بقدر ما نمضي من الوقت كي نتحرك، بقدر ما سيكون علينا أن نتحرك تحت نظام فاشي . وهو ما يجعل المخاطر في واقع الحال ضخمة جداً.

خلاصة

لقد اتهمنا بالخيانة . بيد أن (خيانتنا) الوحيدة هي فضح وفرقعة هذا المجتمع المزيف، الشكلي، القانوني والسطحي الذي يغطي الحقيقة الوطنية التي لم تتوقف عن التفكك نتيجة "التخلي" الذي يزداد كارثية كل يوم ،على صورة مرارة العجز والفشل.

(فالخيانة الحقيقية) هي التنكر -الفاعل أو السلبي - للموارد العميقة لهذه البلاد، وللحظوظ الوحيدة للوصول إلى مجتمع فعلي، وإلى كل ما من شأنه أن يشكّل النابض الأكيد لتقدّم فرنسا .

سأتحدث عنها في الحاضر. ربما كان حرجاً أن نستشف حظوظنا وأن نؤمن بهاء حين كان كل شيء ما زال يغفو حولنا. بيد أن الواقع قد تغير اليوم . لقد تبدّل الوضع كثيراً منذ بضعة أشهر . وهو ما كانت المعارضة تعتقد واجب المرور عليه بصمت. الصحافة الكبرى تتحدث عنه اليوم، كذلك تناقشه جميع الأحزاب ، بينما الحكومة تقلق.

إنه تطور لا رجعة فيه . باشر انطلاقته وسط الشبيبة الفرنسية، فكل يوم نتلقى مؤشرات جديدة تسمح بتوقع تسارع متعاظم في الأشهر القادمة. لم يعد باستطاعة أحد تجاهل ذلك. إن عام الستين هذا هو عام حاسم.

لم يعد السحر الديغولي يفعل فعله. والإعلان عن حرب طويلة بدد آخر الأوهام . كل الأزمات المستترة تطفو في وضح النهار، ومن إضراب إلى آخر، يسترجع العمال نضاليتهم، كما أن المطالب الاجتماعية أصبحت ترتبط أكثر فأكثر برفض هذه الحرب.

الصعوبات التي يصادفها الجيش الفرنسي في الجزائر مرشحة جدّياً لأن تتأزم في أقرب فرصة. وعلى حكومتنا أيضا أن تواجه دفعة واحدة في شهري أكتوبر ونوفمبر، حركات العصيان الجماعية، تزايد التحركات الاجتماعية (بعد فترة هدوء خلال العطلة) والدورة الجديدة للجمعية العامة للأمم المتحدة التي يمكن لخلاصاتها بشأن سياستنا في الجزائر أن تختلف بعض الشيء عن خلاصات السنوات السابقة.

من جهتنا، لسنا في «مقعر الموجة» ولم نعد فيه . إن هذا النظام العاجز، واللامبالي بالكامل بالمصالح الحقيقية للبلاد هو الذي سقط فيه . كلاّ ، لم يعد اليسار في وضعية «شبه مستحيلة» والمتمردون اليوم لا يسيرون في «الاتجاه المعاكس».

بيد أن هؤلاء الذين سيستمرون في إدعاء ذلك، إذا لم يكونوا قد خانوا حتى الآن سوى ضرورة مازالت مجردة بعض الشيء ، للعدالة والحقيقة، عليهم أن يدركوا أنهم سيخونون من الآن فصاعداً حقيقة النهوض والانتصاب الفرنسي بالذات.

لقد ماحكنا وتذبذبنا وماطلنا بما فيه الكفاية.

سيقبض هذا الشعب ، شعبنا على فرصته. ليس لنا أن نخشى ونحن نساعده على التقاطها بالانقطاع عنه، إن أخطر ما نغامر به اليوم هو الخوف، هذا الخوف المنافق الذي لا يمنعنا تماماً من الحديث والحركة، لكنه يحكم علينا بأنصاف المقاييس وبالكذب عبر الإهمال والأفعال الفاشلة . أن نتقبّل تخويف ذواتنا بهذه الطريقة، يعني اختيار الفشل على طول الخط . بيد أنه لو بدأنا – على العكس – بالتفكير الحر والتعبير عن كل ما نفكر به ، وفعل ما نقول ، ليس لنا أن نشك بعد، فالباقي سوف يتبع ....

على كل حال ، إن نجاح أي نشاط سياسي ليس له أن يكون مطلق الضمانة. لكن الجمود في وضع كالذي نحن فيه، أو مجرد الإنتظارية هما بالتأكيد ضمانات الفشل.

باريس 06 جوان 1960

الفهرس

طبع ANEP الرويبة ـ 2006

أصوات مناهضة للاستعمار

من المؤكد أن هدف فرنسيس جانسون كان الإسراع في انتصار الشعب الجزائري. و لم يكن جانسون الوحيد الذي يؤمن بحتمية هذا الانتصار، حسبما تشهد بذلك مواقف ريمون آرون منذ 1957 حول المأساة الجزائرية. كما كان هدفه أيضاً و خاصةً، أن يجعل من النصر الجزائري نصراً فرنسياً كذلك. نصر لا يكون بارداً، قائماً فقط على انسحاب فرنسي لاعتبارات استراتيجية وحسابات اقتصادية. إنما استقلال حار يأتي نتيجة للنضالات المتلازمة. استقلال تناضحي يرسم معالمه الأولية التآزر الرائع بين "شبكة جانسون" وفدرالية جبهة التحرير الوطني في فرنسا و 400 ألف مهاجر في المترويول. هذا التآزر سمح بالفعل للجزائر المحاربة بالاستفادة من استقلال مالي لا شبيه له في تاريخ حركات التحرر الوطني.

ليجد هنا كل من فرنسيس جانسون ورفاقه المناضلين، مرة أخرى، تعبير العرفان الحميمي من الشعب الجزائري.

مختار من التوطئة





©Editions ANEP
N° ISBN : 9947-21-310-2